

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

حِينَ تَقُومُ الْحُجَّةُ وَيُنْكَشِفُ مَصِيرُ الْإِنْسَانِ

سُورَةُ الْبَيْنَةِ

حِينَ تَقُومُ الْحُجَّةُ وَيُنْكَشَفُ مَصِيرُ الْإِنْسَانِ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

مقدمة منهجية

من غموض الطريق إلى وضوح الحق

ليست سورة البينة طويلة في عدد آياتها، ولكنها من السور التي تختصر تاريخاً كاملاً من علاقة الإنسان بالحقبة؛ فهي تبدأ بالبشرية وقد انقسمت في موقفها من الوحي، وتعرض اللحظة التي جاءت فيها الحقبة ناصعة لا تترك للالتباس مأوى، ثم تكشف أن المشكلة لم تكن دائماً في غياب الدليل، بل ربما كانت في القلب الذي لا يريد للدليل أن يغيّر نظام حياته، وتنتهي برسم المصير الأخير في صورتين متقابلتين: نار لمن عرف ثم بحد، ورضوان لمن آمن وخشي واستقام.

ثماني آيات فقط، لكنها تقيم ميزاناً شاملاً لمعنى الدين، وتعيد ترتيب المفاهيم التي كثيراً ما يبددها الجدل البشري؛ فتخبرنا أن الهداية ليست ميراثاً عرقياً، ولا انتساباً اسماً، ولا ثقافةً دينيةً محفوظةً في الصدور دون أن تنعكس في السلوك، وإنما هي استجابة للحقيقة حين تصل، وإخلاص لله حين تختلط الدوافع، وإقامة للصلاة حين تتنازع الروح مشاغل الأرض، وإيتاء للزكاة حين يحاول المال أن يستولي على القلب، وخشية تتضج الإنسان في السر قبل أن تحسن صورته في العلن.

وسوف تسير هذه الرحلة التدبرية مع آيات السورة آية آية، ملتزمة أن تبدأ من دلالة النص وسياقه ونظمه، وآلا تتجمل الألفاظ ما لا تحتمل، ثم تنفتح من داخل المعنى القرآني على آفاق النفس والتاريخ والاجتماع والحضارة؛ لأن القرآن لا يحدث الإنسان عن ماضي الأمم ليزيد معلوماته، بل ليكشف له القوانين التي ما زالت تعمل في قلبه وفي مجتمعه وفي صراعه اليومي مع الهدى والهوى.

ولن نتعامل مع أهل الكتاب والمشركين في السورة بوصفهم صورتين تاريخيتين منقطعتين عن الحاضر، وإن كان سبب النزول وسياق الخطاب محفوظين في دلالتهما، بل سنتأمل من خلالهما نمطين متجددين من أنماط الممانعة الإنسانية: نمطاً يمتلك أثراً من المعرفة ثم تحجبه الألفة والمصلحة والتعصب، ونمطاً يقيم خارج نور الوحي فتتوزع به الأهواء والظنون. وبين النمطين تأتي «البينة» لا فكرة بشرية قابلة للمساومة، بل رسولاً من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيتحول حضور الحق من احتمال يُناقش إلى حجة تُلزم، ومن خبرٍ بعيد إلى نداءٍ يضع الإنسان أمام نفسه.

ومن هنا فإن السورة لا تقصّ علينا مجرد خلافٍ ديني قديم، وإنما تفتح واحدةً من أخطر مسائل الوجود: ماذا يفعل الإنسان حين تأتيه الحقيقة التي لا توافق مصالحه؟ هل ينبغي لها لأن الحق أكبر منه، أم يحاول إخضاعها

لتاريخه ومكانته وشهواته؟ وهل تكون المعرفة باباً إلى الهداية، أم تتحول—حين ينقصها الإخلاص—إلى جدارٍ أشد سماكة من الجهل؟

إن سورة البينة تنقلنا من السؤال عن وضوح الدليل إلى السؤال عن سلامة المتلقي؛ فقد تكون الشمس ساطعةً، ولكن العين المغلقة لن ترى منها شيئاً، وقد يكون الكتاب بين اليدين، ولكن القلب إذا دخله الكبر قرأ الحروف وجُـب عن النور. لذلك لا يكفي أن تأتي البينة؛ بل لا بد أن يوجد في الإنسان من التواضع ما يسمح لها بأن تعيد بناءه، ومن الصدق ما يجعله مستعداً لخسارة أوهامه كي يربح الحقيقة.

وسوف نرى أن السورة تتحرك في بناء محكم: تبدأ بحال الناس قبل مجيء الرسول، ثم تعرف البينة بأنها رسولٌ يتلو صحفاً مطهرة، ثم تكشف مفارقة التفرق بعد مجيء العلم، ثم تردّ الدين إلى جوهره النقي: الإخلاص، والصلاة، والزكاة، والاستقامة، ثم تعقد المقارنة الأخيرة بين شر البرية وخير البرية، قبل أن تبلغ ذروتها في مشهد الرضا المتبادل: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، ذلك المقام الذي تنتهي عنده أشواق المؤمنين، وتسكن فيه رحلة الإنسان الطويلة من قلق الأرض إلى طمأنينة القرب.

إنها سورة المحجة حين تكتمل، والصفوف حين تتمايز، والدين حين يُنقى من
أثقال التعصب والرياء، والإنسان حين يُوزن لا بما ادعاه لنفسه، بل بما أحدثه
الوحي في قلبه وحياته. ومن بين كلماتها القليلة ينهض سؤال لا يستطيع قارئ
أن يهرب منه طويلاً:

إذا جاءتني البينة، فهل أكون عبداً للحقيقة، أم أجعل الحقيقة خادمةً لما
أريد؟

الفصل الأول

قبل مجيء البينة: الإنسان المعلق في أسر ما اعتاد

الآية الأولى

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ﴾

تفتتح السورة حديثها عن واقعٍ بشريٍّ شديد التعقيد: أهل كتابٍ عندهم بقايا من الوحي، ومشركون انقطعت تصوراتهم عن النبع الإلهي الخالص، غير أن الفريقين—على اختلاف منابع المعرفة بينهما—التقيا عند حالة من الكفر لا يزيلها مجرد مرور الزمن، ولا تفككها الأمنيات، ولا تنتزع الإنسان منها قوةً باطنة تولد تلقائياً من داخله؛ فقد كان لا بد من «البينة»، من نورٍ يأتي من خارج المتاهة ليكشف للضال أنه كان يدور، ومن خطابٍ إلهي يقطع سلسلة الظنون التي ورثها الناس حتى ظنوها حقائق.

و«مُنْفَكِينَ» لفظة تحمل معنى المفارقة والانفصال والانهاء عن الحال التي استقروا عليها؛ فكأنهم كانوا مشدودين إلى كفرهم بجبالٍ من الموروث والمصلحة والعادة والعصبية، لا ينفكون عنها حتى تأتيهم الحجة التي تبلغ من الوضوح مبلغاً لا يعود معه البقاء على الحال الأولى نقصاً في المعلومات

وحدها، بل اختياراً أخلاقياً يتحمل صاحبه مسؤوليته. إن للباطل قوةً تثبت عجيبة؛ فهو لا يعيش دائماً لأنه مقنع، بل لأنه قديم، ولأن حياةً كاملةً نظمت حوله، ولأن الاعتراف ببطلانه لا يغير فكرةً في الذهن فحسب، وإنما يهز المكانة والعلاقات والمكاسب والصورة التي رسمها الإنسان لنفسه بين الناس.

وقد يبدو الجهل لأول وهلة مشكلةً معرفيةً بسيطةً يمكن علاجها بإضافة بعض المعلومات، لكن السورة تفتح لنا باباً أعمق: فالإنسان قد يكون محاطاً بميراثٍ من المعرفة، ثم يظل بعيداً عن الهداية؛ لأن بين امتلاك النص والخضوع له مسافةً لا يقطعها إلا الصدق. أهل الكتاب لم يكونوا خالين من آثار النبوات، ولم تكن كلمة الله مجهولةً في تاريخهم، لكن المعرفة حين تتراكم دون تركية قد تتحول إلى امتياز اجتماعي، ويغدو النص الذي نزل ليقود الإنسان وسيلةً يستخدمها الإنسان لتأكيد تفوقه، ويصبح الدين هويةً يدافع بها عن ذاته بدل أن يكون نوراً يحاكم به ذاته.

أما المشركون فقد عاشوا في عالمٍ تتعدد فيه الآلهة بتعدد المخاوف والمصالح؛ لكل حاجةٍ معبود، ولكل قبيلةٍ رمز، ولكل وهمٍ طقسٌ يحرسه. وحين تضع وحدة المعبود تنشظى وحدة الإنسان؛ لأنه لا يستطيع أن يخضع لجهاتٍ متفرقة ثم يحتفظ في أعماقه بقلبٍ واحد. الشرك ليس مجرد خطأ في تسمية الإله، بل تمزقٌ في مركز الإرادة، واستعبادٌ للروح تحت سلطات كثيرة؛

يخاف الإنسان من الناس، ويرجو المال، ويتعلق بالمكانة، ويسترضي القوة، حتى يصبح قلبه ساحةً تتنازعها الأرباب المتفرقة وإن لم يسمّها أصناماً.

ولهذا جاءت البيئة لتعيد الإنسان أولاً إلى وضوح المصدر: الله وحده هو الذي يخاطب، ويأمر، ويهدي، ويستحق أن تتجه إليه العبادة كلها. إن تحرير العقل يبدأ من تحرير العبودية؛ فما دام في القلب سيدٌ غير الله، فسوف تُلوّى الحقائق كي ترضيه، وسوف تُرفض الأدلة إذا هددت سلطانه. أما حين يخلص القلب لله، فإنه يكتسب شجاعةً نادرة: شجاعة أن يرى الأشياء كما هي، لا كما تريدها مصالحه أن تكون.

وفي الآية معنى بالغ الدقة: أن البشرية لم تكن لتخرج من ضلالها خروجاً كاملاً بمجرد اجتهادها الذاتي؛ فالعقل يستطيع أن يكتشف كثيراً من السنن، وأن يبيّن الحضارات، وأن يسائل الوجود، لكنه لا يستقل بمعرفة الغيب ومراد الخالق وطريق العبادة ومصير الإنسان بعد الموت. إنه مصباحٌ عظيم، لكن المصباح لا يرسم الطريق من تلقاء نفسه؛ يحتاج إلى خريطة الوحي، وإلا فقد يضيء للإنسان خطاه وهو يسير بوضوح كامل في الاتجاه الخطأ.

وليس في هذا إلغاءً للعقل، بل إنقاذٌ له من أن يُكَلَّف بما يتجاوز حدوده؛ فالوحي لا يأتي ليطنفئ العقل، وإنما لينحه الأفق الذي يعمل داخله، وليقدم له

الحقائق الكبرى التي لا تُنال بالتجربة المادية: من أين جاء الإنسان؟ ولماذا وُجد؟ وما الخير الذي يرضاه الله؟ وإلى أين تنتهي هذه الرحلة؟ وحين يجيب الوحي عن هذه الأسئلة، يبدأ العقل عمله النبيل في الفهم والتدبر والعمران والتنزيل؛ فلا يكون تابعاً أعمى، ولا إلهاً متوهماً، بل أداةً كريمةً من أدوات الاهتداء.

وتكشف الآية كذلك رحمة الله بالبشر؛ فلم يتركهم أسرى لما ورثوا، ولم يحاسبهم قبل قيام الحجة التي تزج الأعداء، بل أرسل إليهم «البيّنة». إن الوحي مظهرٌ من مظاهر الرحمة قبل أن يكون خطاب تكليف؛ لأن الإنسان الذي لا يعرف طريقه يستنزف عمره في التجربة، وقد يموت وهو يبحث عن بابٍ كان يحتاج أن يُدَلَّ عليه. فجاءت الرسالة لتوفر عليه ضياع الوجود، ولتخبره أن الحياة ليست متاهةً بلا معنى، وأن السماء لم تصمت، وأن خالق الإنسان لم يتركه للخوافه وأساطيره وصراعاته.

لكن الرحمة حين تصل تتحول إلى مسؤولية؛ فالضوء الذي ينقذ السائر من العثرة يكشف في الوقت نفسه اختياره إذا أصر على السير نحو الحفرة. قبل البيّنة قد يختلط العجز بالجهل، أما بعدها فإن الموقف يكتسب وزنه الأخلاقي؛ لأن الإنسان لم يعد يواجه ظلاماً مطلقاً، بل يواجه نوراً ويقرر ماذا سيفعل به. ومن هنا كان مجيء الرسل حدثاً فاصلاً في تاريخ الأقسام: لا لأنهم

أضافوا معلومةً جديدةً فحسب، بل لأنهم نقلوا الناس من مرحلة الالتباس إلى مرحلة الامتحان المكشوف.

والإنسان المعاصر ليس بعيداً عن هذه الآيّة؛ فقد يعيش وسط تدفقٍ هائل من المعلومات، لكنه يظل «غير منفكٍّ» عن أوهامه، لأن كثرة الأخبار لا تساوي حضور البينة، ولأن العقل المحاصر بالشهوة يستطيع أن يحوّل أوضح الحقائق إلى مادةٍ للجدل. كم من إنسان لا يرفض الحق لأنه لم يفهمه، بل لأنه فهم ما سيطلبه منه! إنه يعلم أن قبول الحقيقة سيجبره على تغيير طريقته في كسب المال، أو علاقته بالسلطة، أو عاداته السرية، أو صورته أمام أتباعه، فيختبئ وراء اعتراضاتٍ فكريةٍ بينما يقع الرفض الحقيقي في مكانٍ آخر من النفس.

وقد تتكرر حالة «عدم الانفكاك» حتى داخل حياة المؤمن؛ فيعرف المرء حكم الله، ويقرأ الآيّة، ويسمع الموعظة، لكنه يظل مشدوداً إلى عادةٍ لا يريد مفارقتها. هنا لا تكون المشكلة في غياب النص، بل في ضعف الإرادة أمام ما كشفه النص. وقد تأتي البينة إلى العقل في لحظة، لكن انفكاك النفس عن تاريخها يحتاج إلى مجاهدةٍ طويلة؛ لأن بعض الأوهام تسكن الأفكار، وبعضها يسكن الأعصاب والعادات والذكريات والمصالح.

إن أول درسٍ تضعه السورة أمامنا هو أن الحقيقة لا تُقاس بقدَم ما يخالفها ولا بكثرة المتمسكين به؛ فقد يجتمع إرثُ أهل الكتاب وكثرة المشركين على موقف، ثم تأتي البيّنة وحدها فتزن الجميع. الحق لا يحتاج إلى جمهورٍ يمنحه شرعيته، وإنما يمنح هو الشرعية لمن يتبعه؛ ولا يصبح الباطل حقاً لأن الأجيال توارثته، فامتداد الخطأ في الزمن لا يغير طبيعته، كما أن كثرة السائرين في الطريق المنحرف لا توصله إلى الغاية.

إن البيّنة هي لحظة انكسار سلطان المألوف؛ اللحظة التي يقف فيها الإنسان بين ماضٍ صنعه الناس، وحقٍّ جاءه من الله. وعندها يُعرف مقدار حريته الحقيقية: ليس الحر من يفعل ما يشتهي، بل من يستطيع أن يفارق ما اعتاده حين يتبين له أنه باطل؛ وليس العاقل من يجمع الحجب التي تحمي موقفه، بل من يمتلك من النزاهة ما يجعله يغيّر موقفه حين تقوم عليه الحجة.

وهكذا تبدأ السورة قبل أن تعرّفنا بالبيّنة نفسها، فتجعلنا نرى مقدار الحاجة إليها: بشريةٌ عالقة في مذاهبها وأوثانها وأمجادها وأهوائها، تنتظر كلمةً لا تولد من الأرض، ورسولاً لا يتحدث باسم ذاته، وصحفاً طاهراً لا تسلل إليها أهواء المؤلفين. وفي الأفق يلوح النور الذي سيكشف كل شيء؛ لكن السؤال الذي ستجيب عنه بقية السورة ليس: هل جاءت البيّنة؟ فقد جاءت، وإنما: ماذا صنع الناس بأنفسهم بعد أن جاءت؟

الفصل الثاني

الْبَيْتَةُ الْحَيَّةُ: حين يصير الوحي إنساناً يمشي بين الناس

الآياتان الثانية والثالثة

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾

لم تترك السورة لفظ «الْبَيْتَةُ» عائماً في فضاء التجريد، ولم تجعلها برهاناً ذهنيّاً بارداً تناقله المجالس، وإنما كشفت عنها في صورةٍ تنبض بالحياة: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾. كأن الحقيقة في التصور القرآني لا يكفي أن تُكتب في سطورٍ بعيدة، بل لا بد أن تتجسد في إنسانٍ يحملها بصدقه، ويترجمها بسيرته، ويقف بها أمام الناس، حتى يروا في أخلاقه شاهداً على ما يسمعون من لسانه، فلا تبقى الرسالة كلاماً يطلب التصديق، وإنما تصبح حياةً كاملة تُرى وتُختبر ويُعرف معدنها في الشدة والرخاء، وفي القوة والضعف، وفي النصر والابتلاء. إنه ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ وهذه الإضافة القصيرة تنقل الخطاب كله من الأرض إلى السماء. ليس الرسول صاحب مشروعٍ شخصي يبحث به عن السيادة، ولا مفكراً يريد أن يضيف مذهبه إلى مذاهب البشر، ولا شاعراً يستعرض جمال القول، ولا زعيماً يفاوض الناس على نصيبٍ من السلطان؛

إنه رسولٌ جاء من جهةٍ أعلى من رغبات الجميع، يحمل كلاً ما ليس من إنشائه، ويبلغ أمراً لا يملك أن يبدله، ويقف هو نفسه تحت سلطان ما أمر أن يبلغه. إن عظمة الرسول لا تنبع من استقلاله عن الله، بل من كمال عبوديته له؛ ولا من أنه أضاف إلى الوحي رأيه، بل من أنه حمله بأمانةٍ لم تتسرب إليها شهوة الذات. وفي عالم اعتاد الناس فيه أن يشكوا في الدوافع، وأن يفتشوا خلف كل خطابٍ عن منفعة صاحبه، يقف محمد ﷺ ظاهرةً من الصدق لا يمكن تفسيرها بمنطق المصلحة؛ فقد عرضوا عليه المال والملك والجاه ليرك دعوته، ففضى في طريقه لأنه لم يكن يملك الرسالة حتى يبيعها، ولم تكن النبوة مشروعاً اختاره لنفسه كي يتراجع عنه حين ترتفع الكلفة، بل أمانةً اختارها الله له، فصار وجوده كله وفقاً عليها.

ولفظ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يحرر الإنسان من سلطة البشر وهو يدعو إلى طاعة الرسول؛ لأن الطاعة هنا ليست خضوعاً لإنسانٍ استبد برأيه، وإنما استجابةً لله الذي أرسله. والرسول لا يقف حجاً بين العبد وربه، بل دليلاً إليه؛ لا يطالب الناس أن يعبدوه، وإنما يتقدهم من عبادة كل ما سواه، ولا يصنع لنفسه مقاماً ينازع مقام الألوهية، وإنما يعلم البشرية أن أشرف مقام يبلغه المخلوق هو مقام العبودية الخالصة للخالق.

ثم تصف السورة وظيفه هذا الرسول: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾. والتلاوة ليست مجرد إخراج الأصوات من مخارجها، وإن كان حسن الأداء من جمالها، بل هي حملٌ للمعنى إلى السامعين، وإيصالٌ لكلام الله كما أنزل، ومتابعةٌ لآياته آيةً بعد آية حتى تتشكل في الوعي رؤيةٌ جديدة للوجود. كان الرسول ﷺ يتلو القرآن فيدخل صوته إلى آذان قومه، لكن الذي كان يطرق أبواب أرواحهم هو كلام الله؛ ولذلك لم تكن المعركة حول بلاغة النص وحدها، بل حول السلطة التي يحملها النص، وحول العالم الجديد الذي يريد أن يقيمه في القلب والأرض.

فالقرآن حين يُتلى لا يقدم معلوماتٍ منفصلة، وإنما يعيد تعريف كل شيء: يعرف الإنسان بربه، ويعرفه بنفسه، ويكشف له حقيقة الدنيا، ويضع الموت في موضعه، ويرفع الآخرة من خبر غامض إلى يقينٍ يحكم الحركة، ويعيد توزيع القيم حتى يغدو الفقير المؤمن أثقل في الميزان من المتكبر ذي المال، ويصبح العمل الخفي الذي لا تراه العيون أعظم عند الله من مشهدٍ صاخبٍ تصفق له الجماهير.

إن تلاوة الوحي ميلادٌ جديد للغة؛ لأن الكلمات التي استهلكها الناس في عاداتهم تعود في القرآن مشحونةً بحقيقتها الأولى. كانوا يعرفون ألفاظ الرحمة والعدل والعبادة والحساب، لكن القرآن أعاد بناء دلالاتها في نفوسهم، ونقلها

من حدود الاستعمال البشري الضيق إلى سعة الارتباط بالله. وحين كان الرسول ﷺ يتلو عليهم، لم يكونوا يسمعون قاموساً جديداً فحسب، بل كانوا يشهدون انهيار قاموسٍ كاملٍ من القيم الجاهلية: قاموس النسب الذي يرفع الوضع إذا كان قوي القبيلة، وقاموس المال الذي يجعل الغنى شهادةً على الكرامة، وقاموس القوة الذي يمنح الغالب حق تعريف العدل.

صحفٌ لا تمسها أقدار الأهواء

وصف الله تلك الصحف بأنها ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، والطهارة هنا تفتح في النفس أفقاً من النقاء يليق بمصدر الوحي ومضمونه؛ فهي مطهرةٌ من الباطل والتناقض والعبث، مصونةٌ عن أن تكون ملعباً للأهواء البشرية، تحمل كلاماً لا يتلوث برغبة كاتبه في الشهرة، ولا بخوفه من السلطان، ولا بحاجته إلى إرضاء الجمهور، ولا بتقلب موقفه كلما تغيرت موازين القوة.

أما الكلام البشري—مهما سما—فإن صاحبه يترك فيه شيئاً من زمنه ومحدوديته ومخاوفه؛ يرى من زاوية، ويغيب عنه ما وراءها، ويصيب اليوم ثم ينكشف له غداً ما لم يكن يعلم. لكن الوحي صادرٌ عن علم الله الذي لا يسبقه جهل، وعن حكمته التي لا يلحقها نقص، وعن رحمته التي وسعت الخلق؛

ولذلك لا يحتاج القرآن إلى أن يجامل مرحلةً تاريخيةً، ولا أن يستعير شرعيته من ثقافة، ولا أن يعتذر عن حكمٍ لأنه خالف هوى عصرٍ متقلب.

إنها صحفٌ مطهرة، لكن الانتفاع بطهارتها يحتاج إلى قلبٍ يتطهر من الكبر؛ فالنص النقي قد يدخل إلى نفسٍ ملوثةٍ بالمصلحة فتسيء استخدامه، وقد يُتلى الوحي بلسانٍ فصيحٍ بينما يستعمله صاحبه سلباً إلى الدنيا. المشكلة لا تكون في صفاء الماء، بل في الإناء الذي يستقبله؛ فقد ينزل المطر طاهراً من السماء، ثم يمر في مجارٍ ملوثة فتتغير رائحته ولونه. وهكذا قد يظل القرآن في ذاته نوراً كاملاً، بينما تحجبه عن الناس قراءاتٌ اختلطت بالعصبية أو طلب السلطة أو تقديس الذات.

ولذلك فإن من أدب تلقي الصحف المطهرة أن يقترب منها القارئ وهو يشك في هوى نفسه أكثر مما يشك في حكم ربه، وأن يسأل قبل التلاوة: ماذا يريد الله مني؟ لا: كيف أستخرج من الآية ما يؤيد ما قرره سلفاً؟ فالذي يدخل إلى القرآن طالباً الهداية يخرج منه بقلبٍ جديد، أما الذي يدخله طالباً الانتصار لنفسه فقد يجمع النصوص ويظل بعيداً عن روحها؛ لأنه لم يفتح للوحي باب الحكم عليه، بل استدعاه ليكون شاهداً في محكمةٍ نصب نفسه قاضياً.

إن طهارة الصحف تضع على حاملها مسؤوليةً أخلاقيةً شديدة؛ فلا يليق بكلامٍ مطهر أن تحمله نفسٌ تستمرئ الخيانة، ولا أن يتحول إلى زينةٍ لفظية فوق واقعٍ فاسد، ولا أن نثلوه ألسنةً تجيد الوقوف عند أحكام التجويد ثم تتجاوز أحكام العدل والرحمة والأمانة. وليس المقصود أن حامل القرآن لا يخطئ، فالإنسان موضع ضعفٍ وتقصير، وإنما المقصود أن يبقى مستعداً لأن يعود، وأن يشعر بالتناقض بين المعصية وكلام الله، فلا يعيد تشكيل النص كي يبرر سقوطه، ولا يمنح خطأه قداسةً مستعارة.

كُتِبَ تَقِيْمُ مَا اَعْوَجَ

ثم يقول الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيْمَةٌ﴾؛ أي فيها أحكامٌ وشرائعٌ وحقائقٌ مستقيمةٌ عادلة، قائمةٌ بالحق، تهدي الإنسان إلى ما يصلح أمره. ولفظة ﴿قِيْمَةٌ﴾ لا تصف سلامة هذه الكتب في ذاتها فحسب، بل توحى بقدرتها على إقامة غيرها؛ فالحق المستقيم لا يكفي بأن يكون مستقيماً في نفسه، وإنما يكشف الاعوجاج من حوله ويمنح الأشياء ميزانها.

إن الإنسان لا يرى انحرافه دائماً، لأن العين إذا طال بها المقام في المكان المائل اعتادت ميله، وقد يبدو الاعوجاج طبيعياً حين يصبح ثقافةً عامة. هنا تأتي «الكتب القيمة» كميزانٍ ثابت لا يتغير بتغير المزاج؛ فتقول للإنسان إن

الظلم ظُلمٌ ولو زينتَه الدولة، وإن الربا فسادٌ ولو صار عمادِ اقتصادٍ عالمي، وإن الفاحشة لا تصبح طهارةً لأن الذوق العام أعاد تسميتها، وإن الحق لا يصير باطلاً لأن أصحابه كانوا ضعفاء.

وحاجة الإنسان إلى ميزانٍ خارجٍ ذاته من أعظم حاجاته؛ لأنه إذا جعل نفسه مصدر القيمة وحكمها في الوقت نفسه، استطاعت شهوته أن تصدر الحكم الذي يبرئها. ما أسهل أن يجد المرء لأخطائه أسماءً نبيلة: يسمي الجبن حكمةً، والبخل تدبيراً، والرياء مراعاةً للناس، والانتقام استرداداً للكرامة، والتعصب وفاءً للمبدأ. لكن الكتاب القيم ينزع عن الأشياء ألقها، ويعيد كل فعلٍ إلى اسمه الأخلاقي الصحيح، حتى لا يخجو الإنسان من الحقيقة بمجرد تغيير الألفاظ.

و«القيِّمة» لا تعني الانفصال عن الحياة، بل تعني القدرة على إقامتها؛ فالوحي لا يطلب من الإنسان أن يهجر الأرض، وإنما أن يعمرها على هدى السماء، ولا يعادي الجمال، وإنما يطهره من الابتدال، ولا يحرم القوة، وإنما يمنعها أن تتحول إلى طغيان، ولا يذم المال لذاته، وإنما يحرره من أن يكون رباً مستتراً يحكم القلب. إنه لا يقتل طاقات الإنسان، بل يضع كل طاقة في موضعها الصحيح؛ فالشهوة في ميزان الوحي ليست نجاسةً في أصلها، لكنها تحتاج إلى سياجٍ يحفظ كرامتها، والغضب ليس شراً محضاً، لكنه ينبغي أن

يغضب للحق لا للذات وحدها، والطموح ليس جريمةً، لكنه يفسد حين يجعل الآخرين درجاتٍ تحت قدم صاحبه.

وإذا كانت الصحف مطهرةً في مصدرها، والكتب قيمةً في مضمونها، فإن هذا الدين يجمع بين نقاء الأصل واستقامة الأثر؛ فلا هو روحانيةٌ غائمةٌ لا تعرف كيف تنظم حياة الناس، ولا هو قانونٌ جاف يعالج الظاهر ويترك القلب نهباً للفراغ. إنه يبنى الضمير الذي يراقب، ثم يقيم الحكم الذي يضبط؛ يزرع خشية الله في الداخل، ويضع حدود العدل في الخارج؛ لأن المجتمع لا يصلح بالرقابة وحدها إذا ماتت الضمائر، ولا بالضمائر وحدها إذا غابت الموازين التي تمنع المعتدي.

الرسول الذي فسر الكتاب بحياته

ولم تكن تلاوة الرسول للصحف منفصلةً عن سيرته؛ فقد كان الوحي يُرى في صبره قبل أن يُسمع في صوته، وفي رحمته قبل أن يُقرأ في المصحف، وفي عدله حين يختلف، وفي تواضعه حين ينتصر، وفي ثباته حين يُحاصر. وهذه هي إحدى وجوه البينة: أن الذي جاء بالكتاب كان هو نفسه دليلاً على صدقه؛ فلم تعرف حياته فجوةً بين الخطاب والموقف، ولم تتحول النبوة في يده إلى امتيازٍ

دنيوي يورثه لأبنائه، ولم يصبح النصر فرصةً للانتقام لنفسه ممن آذوه، بل ظل عبداً حين طُرد، وعبداً حين عاد فاتحاً، وعبداً حين اجتمعت له الجزيرة.

لقد أدرك القرآن أن الأفكار مهما بلغت من السمو تحتاج إلى نموذج بشري يحررها من وهم الاستحالة. قد يسمع الإنسان عن العفو فيراه مثاليةً بعيدة، حتى يشهد قادراً يعفو؛ ويسمع عن الصبر فيحسبه لغة العاجزين، حتى يرى قوياً يصبر لله؛ ويقرأ عن التواضع فيظنه زينة خطائية، حتى يرى قائداً يجلس حيث ينتهي به المجلس. ولهذا كان الرسول ﷺ بياناً عملياً للكتاب، وكانت سنته الجسر الذي انتقلت عليه القيم من عالم المعاني إلى تفاصيل الحياة. إن العالم لا يعاني دائماً من نقص الخطب، بل من ندرة الشهود؛ من أولئك الذين إذا تحدثوا عن الأمانة صدقتهم معاملاتهم، وإذا دعوا إلى الزهد لم تمد أعينهم إلى ما في أيدي الناس، وإذا طالبوا بالعدل بدأوا بأنفسهم وأقرب الناس إليهم. وحين تنفصل الفكرة عن حاملها تضعف في عيون الخلق، لا لأن الحق يتغير بخطأ أتباعه، بل لأن أكثر الناس يحتاجون إلى أن يروا إمكان الحق قبل أن يغامروا بالسير إليه.

ومن هنا يحمل كل مسلم نصيباً من مسؤولية الشهادة؛ فهو لا يكون رسولاً، فالنبوة خُتمت بمحمد ﷺ، لكنه يحمل أثر الرسالة إلى الناس. وقد يقرأ

شخص القرآن لأول مرة من خلال أخلاق مسلم يلتقيه؛ فإن رأى صدقاً ورحمةً وعدلاً انفتح قلبه ليسأل عن النبع، وإن رأى غدراً وقسوةً وتناقضاً ربما حُجِبَ عن جمال الدين بسوء تمثيل صاحبه. وتلك أمانةٌ ثقيلة: أن يكون سلوك الإنسان نافذةً على ما يعتقد، لا ستاراً يحجب عنه.

التلاوة التي تتجاوز اللسان

إن قوله تعالى: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يعيد تعريف علاقتنا بالقرآن؛ فليس المقصود أن يمر الكتاب على أصواتنا ويبقى واقعنا على حاله، وإنما أن نتلوه الألسنة حتى يبلغ القلوب، ثم نتلوه القلوب على الجوارح عملاً وموقفاً واختياراً. التلاوة الحقيقية رحلةٌ من الحرف إلى الوعي، ومن الوعي إلى الإرادة، ومن الإرادة إلى الحياة.

وقد يصيب الأمة نوعٌ من المفارقة المؤلمة حين تزداد فيها المصاحف وتقل فيها موازين القرآن، أو حين يعلو صوت التلاوة بينما يخفت صوت العدل. ليس في كثرة التلاوة نقص، بل هي خيرٌ عظيم، لكن الخلل أن تتحول الوسيلة إلى غاية، وأن يطمئن الإنسان إلى حركة لسانه حتى ينسى أن الآيات تسأله عن حركة قلبه ويده وماله وصلاته وصلاته بالناس. فالقرآن لم ينزل ليقم

مسابقةً بين الأصوات وحدها، بل ليقم أمةً بين الأمم؛ ولم ينزل ليجمّل المجالس فحسب، بل ليظهر الضمائر ويقوم الحضارة.

إن الآية لا تفصل بين جمال التلاوة وقوة الهداية، وإنما تريد للجمال أن يكون مربكاً للمعنى، لا حجاباً عنه. فالصوت الحسن يفتح الباب، لكن الذي ينبغي أن يدخل هو أمر الله؛ والخشوع الذي يسيل دمعاً ينبغي أن يسيل بعد ذلك رحمةً في التعامل، وصدقاً في البيع، وإنصافاً للخصم، ومقاومةً للظلم. وإلا فقد تأثر الوجدان لحظةً، ثم عادت الحياة إلى نظامها القديم كأن البيئة لم تمر بها.

حين تدخل البيئة إلى القلب

إذا دخلت هذه الصحف المطهرة إلى القلب كما ينبغي، بدأت عملية تطهير عميقة؛ تكشف للإنسان أصناماً لم يكن يعلم أنه يعبدها: صورته في أعين الناس، رغبته في الغلبة، خوفه من فقدان المكانة، اعتداده بعلبه، تعلقه بما يملك. وعندها يدرك أن رحلة التوحيد لا تنتهي بتخميم حجر منصوب، بل تمتد إلى تخميم كل سلطةٍ في النفس تراحم أمر الله.

البيئة لا تضيف قطعةً معرفيةً إلى بناء الإنسان القديم؛ إنها تعيد بناءه من الأساس. تغير مركز رؤيته، فيرى الدنيا مرراً لا مفرّاً، ويرى الموت انتقالاً لا

عدماً، ويرى البلاء امتحاناً لا دليل هوان، ويرى النعمة تكليفاً لا شهادة استحقاق، ويرى الناس أرواحاً مكرومةً لا أدواتٍ لمنفعه. وما لم يحدث هذا التحول، فقد يقرأ المرء الصحف المطهرة بعينه دون أن تسمح لها نفسه بأن تطهره.

إن أخطر ما يمكن أن يقع للإنسان هو أن يألف البيئة حتى تفقد في حسه دهشتها؛ يكرر الآية مئات المرات فلا يشعر أنها تخاطبه، ويحفظ السورة حتى يصبح قادراً على استدعاء ألفاظها، لكنه لا يستدعي نفسه إلى ميزانها. إن الألفة قد تكون حجاباً؛ لأن الشيء القريب جداً ربما كففنا عن رؤيته. ولذلك يحتاج المؤمن في كل تلاوةٍ إلى أن يستقبل القرآن كأنه ينزل على موضعه من القلب الآن، وأن يسأل: ما الذي تريد هذه الآية أن تهدمه في؟ وما الذي تريد أن تبنيه؟ وأين أقف من نورها؟

فالقرآن لا يشيخ، وإنما قد تشيخ طريقة استقبالنا له؛ ولا ينفد، وإنما قد تنفذ دهشتنا نحن. وكلما صفا القلب انكشفت له من الكتاب آفاقٌ لم يكن يراها، لا لأن المعنى الحق يتبدل، بل لأن الروح ترتقي في قدرتها على التلقي. وكما أن النجم الواحد يراه العابر نقطةً من ضوء، ويراه العالم باباً إلى أسرار الكون، فإن الآية الواحدة يمر بها الغافل مروراً، بينما يقيم عندها المتدبر حتى يرى حياته كلها تحت نورها.

وهكذا تعرّفنا السورة بالبيّنة: رسولٌ موصولٌ بالله، يتلو وحياً مطهراً، يحمل في داخله كتباً مستقيمةً تقيم الإنسان والحياة. لم تكن البيّنة صيحةً عابرةً في تاريخ العرب، بل لحظةً فارقةً في تاريخ الإنسان؛ إذ اتصلت الأرض بالسماء اتصال هداية، ووقف الرسول ﷺ بين الناس لا ليزيدهم انقساماً، بل ليردهم إلى الأصل الواحد.

غير أن المفارقة المؤلمة ستظهر في الآية التالية: أولئك الذين كانوا ينتظرون الحجة، ويتحدثون عن النبي الموعود، لم يجتمعوا جميعاً حين جاءهم؛ بل وقع التفرق بعد العلم، وانكشف أن انتظار الحقيقة شيء، وقبلها حين تخالف شروط النفس شيء آخر.

الفصل الثالث

حين جاءت البيئة ففترق المنتظرون

الآية الرابعة

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾

ثمة مفارقة موجعة تسكن هذه الآية: كان المتوقع أن تكون البيئة نهاية التفرق، فإذا بها تصبح اللحظة التي ينكشف عندها التفرق الكامن في النفوس؛ وكان المنتظر أن يجمع النور من عاشوا طويلاً على وعد مجيئه، فإذا بعضهم حين أشرقت علاماته أغلقوا نوافذهم، لا لأن الضوء غامض، بل لأنه أضاء أشياء لم يريدوا لها أن تظهر.

إن السورة لا تقول إنهم تفرقوا قبل العلم لجهلهم بالحقيقة، وإنما تقول: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾. وهنا تنتقل المشكلة من ميدان المعرفة إلى ميدان الأخلاق؛ فليس كل خلافٍ وليد نقص الدليل، ولا كل منازعةٍ في الحق سببها غموض الحق، بل قد يكون الدليل قد بلغ غاية الوضوح، غير أن النفوس تستقبله بموازين أخرى: ماذا سيبقى لي إن قبلته؟ ما المكانة التي سأفقدوها؟ ماذا سيقول قومي؟ كيف أتبع رجلاً لم يخرج من بيتي أو طائفتي؟ وهل أستطيع أن أعترف بأن ما بنيت عليه سنواتي يحتاج إلى مراجعة؟

تلك أسئلة قد لا ينطق بها اللسان، لكنها تتحرك في أعماق القرار، ثم يستدعي العقل من الحجج ما يدافع به عن اختيار صنعته المصلحة قبل أن يبدأ النقاش. وم يبدو الإنسان عقلاً نياً وهو في الحقيقة يكسو هواه ثياب العقل! يرتب اعتراضاته، ويصقل عباراته، ويطلب بالمزيد من الأدلة، بينما المشكلة ليست أن البرهان ناقص، بل أن الثمن الذي تفرضه الاستجابة ثقيل على نفس ألفت السيادة أو الشهرة أو التقديس.

حين لا يكون العلم عصمةً

تخص الآية بالذكر ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وفي هذا تحذيرٌ بالغ من الاغترار بمجرد امتلاك المعرفة الدينية. فالكتاب نعمة، والعلم شرف، ومعرفة أخبار النبوات بابٌ إلى الهداية، لكن هذه النعم لا تعصم صاحبها إذا غاب الإخلاص؛ بل قد تتحول إلى حجةٍ عليه، لأن الذي عرف الطريق ثم اختار غيره ليس كالذي ظل يتلهس في الظلام.

العلم لا يطهر القلب تلقائياً؛ قد يزيد مساحة الإدراك بينما تظل الإرادة أسيرةً للهوى، وقد يمنح صاحبه قدرةً أكبر على تبرير انحرافه، فيصبح أقدر من الجاهل على صناعة الشبهات وترتيب المخارج. ولهذا كان العلم في المنظور القرآني أمانةً أخلاقيةً قبل أن يكون منزلةً ذهنيةً؛ فالقيمة ليست في مقدار ما

يعرفه الإنسان فقط، بل في مقدار ما خضع له مما عرف، وما أحدثه العلم في تواضعه وخشيتته وعدله.

وقد يحمل المرء الكتاب فوق رأسه تعظيماً، لكنه لا يسمح له أن يكون فوق هواه حكماً، وقد يدافع عن النص بحماسة، لكنه إذا مس النص مصلحته بحث له عن تأويلٍ ينجو به. وهنا يقع الانفصال بين تقديس الوحي واتباعه: يصبح الكتاب رمزاً للهوية، لا ميزاناً للسلوك؛ ويصبح الدفاع عنه دفاعاً عن الجماعة وصورتها، لا خضوعاً للحقيقة التي يحملها.

إن الآية تهدم وهماً شائعاً: أن القرب من النص يساوي بالضرورة القرب من الله. القرب المكاني أو الثقافي لا يكفي؛ فقد يكون الكتاب في اليد والقلب بعيداً عنه، وقد تُحفظ ألفاظه ولا تُحفظ حدوده، وقد يكثر الحديث باسمه بينما تقل الحياة به. المسافة الحقيقية بين الإنسان والوحي لا تقاس بعدد الصفحات التي قرأها، بل بمقدار المساحة التي سلّحها له من نفسه.

امتحان الحقيقة حين تأتي من غير الطريق الذي نشتهي

من أشد اختبارات الإنسان أن تأتيه الحقيقة من الجهة التي لم يختارها. فهو قد يحب الحق في صورته الذهنية، لكنه إذا جاء محمّلاً على يد من لا ينتمي إلى طبقته أو قومه أو جماعته ثقل عليه قبوله؛ لأن النفس لا تريد الحقيقة

مجردة دائماً، بل تريد أن تنال معها شرف اكتشافها، وأن تكون هي الطريق الذي تصل من خلاله إلى الآخرين.

لقد كان بعض أهل الكتاب يعرفون أوصاف النبي المنتظر، لكن مجيئه من العرب وضع العصبية أمام الامتحان. وهنا ظهر الفرق بين من كان ينتظر أمر الله، ومن كان ينتظر نبياً يضيف مجداً إلى جماعته. الأول يتبع الحق حيث ظهر؛ لأن مراده الله، أما الآخر فلا يقبل من الحقيقة إلا ما يمر عبر بوابة ذاته، فإذا جاوزتها أنكرها ولو عرف علاماتها.

وهذا مرضٌ يتكرر في كل عصر؛ قد يرفض الباحث فكرةً صحيحة لأن خصمه سبق إليها، ويرفض القائد نصيحةً نافعة لأنها جاءت من موظفٍ صغير، ويرفض العالم تصحيحاً لأن قائله أحد طلابه، وترفض الجماعة مراجعةً لازمةً لأن الذي نطق بها خرج من صفوف منافسيها. ليست المشكلة في مضمون القول، بل في الجهة التي جاء منها؛ وكأن الإنسان لا يسأل: أهذا حق؟ بل يسأل أولاً: من الذي قاله؟

أما التجرد فهو أن يحب المرء الحقيقة أكثر من نسبتها إليه، وأن يفرح بانكشاف الصواب ولو ظهر على لسان مخالفه، وأن يرى الرجوع إلى الحق

رفعةً لا هزيمة. فالذي يعود عن خطئه لم يخسر معركة، بل تحرر من قيد؛
والذي يقبل الحجة ممن هو دونه منزلةً لم ينخفض، بل ارتفع فوق كبره.

البيئة تكشف ولا تُكهر

قد يتساءل المرء: إذا كانت البيئة واضحةً، فلماذا لم يؤمن بها الجميع؟
والجواب الذي يفتحه السياق هو أن وضوح الحق لا يلغي حرية الإنسان ولا
يقتلع أهواءه قسراً؛ فالبيئة تكشف الطريق، لكنها لا تحمل القدم عليه حملاً،
وتفصح العذر، لكنها لا تحول القلب إلى آلةٍ لا تستطيع إلا الطاعة. لقد شاء
الله أن يكون الإيمان فعلاً أخلاقياً حراً، يجمع بين رؤية الدليل وتواضع النفس
واستجابة الإرادة.

ولو كانت قوة البرهان تسلب الإنسان قدرته على الرفض، لما كان للإيمان
معنى التكليف والابتلاء؛ لكن الله أعطى الإنسان مساحةً يستطيع فيها أن
يقول للحق: نعم، وهو قادرٌ على أن يقول: لا، ثم جعله مسؤولاً عن اختياره.
ومن هنا كانت البيئة رحمةً وامتحاناً في آنٍ واحد؛ رحمةً لأنها تدل، وامتحاناً
لأنها تكشف ما في القلب حين يُطلب منه أن يتبع.

إن الشمس لا تفشل في كونها شمساً لأن أعْمى لم يرها، والدواء لا يفقد
خصائصه لأن مريضاً رفض تناوله، والحق لا يعتريه النقص لأن قوماً

بحدوده. ليست كثرة المستجيبين جزءاً من تعريف الحقيقة؛ فقد يقوم الدليل كاملاً ثم تظل النفس قادرةً على الفرار منه، لا إلى دليل أقوى، بل إلى منطقة أريج لهواها.

وهذا يخفف عن الداعية الصادق عبئاً ليس عليه؛ فوظيفته البيان لا امتلاك القلوب، والبلاغ لا ضمان النتائج. عليه أن يقدم الحقيقة برحمةٍ وحكمةٍ ووضوح، وأن يكون سلوكه شاهداً عليها، ثم يترك لله ما وراء ذلك. لا ينبغي له أن يحرف الرسالة كي يكثر أتباعها، ولا أن يجعل قبول الناس معياراً لصوابها؛ فالرسول نفسه جاء بالبينّة، ومع ذلك تفرق الناس حوله، لأن البشر لا يستقبلون النور بقلوبٍ متساوية.

التفرق الذي يبدأ داخل القلب

قبل أن يصبح التفرق جماعاتٍ ومذاهبٍ وخصومات، يبدأ انقساماً خفياً داخل الإنسان: يعرف شيئاً ويريد نقيضه، يسمع نداء الضمير ثم يساومه، يرى الحجة لكنه يؤجل الاستجابة. ومن هذا التمزق الداخلي تولد الانقسامات الخارجية؛ فالقلب الذي لم يتوحد على عبودية الله يبحث عن جماعةٍ تعجى تناقضه، وعن خطابٍ يمنحه راحة الاستمرار.

إن الوحدة الحقيقية لا تبدأ من تشابه الشعارات، بل من وحدة المرجع والخضوع له. وقد يجتمع الناس في صفٍّ واحد بينما قلوبهم متفرقة؛ لأن كل واحدٍ منهم يريد من الدين أن يخدم طموحه الخاص. وقد يختلف المؤمنون في اجتهاداتٍ سائغة وتظل قلوبهم مؤتلفة؛ لأنهم يتجهون جميعاً إلى الحق، ويحفظون للمخالف إخلاصه وكرامته.

ولهذا لا تدم الآية كل اختلافٍ بشري؛ فاختلاف المدارك والاجتهادات فيما يحتمل التنوع سنةٌ من سنن الخلق، وقد يكون مصدر ثراءٍ واتساع. إنما المذموم هو التفرق بعد البينة: حين يتبين الأصل المحكم ثم تقدّم عليه العصبية، أو يُعرف الحق ثم يُترك بغياً، أو يتحول الاختلاف إلى قطيعةٍ واستعلاءٍ واحتكارٍ للهداية.

إن الفرق واسع بين اختلاف الباحثين عن الحق وتفرق المتنازعين على الذات؛ فالأول يقربهم كل دليلٍ جديد وإن صحّ لبعضهم، أما الثاني فيزيدهم الدليل عناداً، لأن كل فريقٍ لا يريد أن توضح المسألة بقدر ما يريد أن ينتصر. الباحث يفرح بالحقيقة ولو خالفت رأيه، والمتعصب لا يفرح إلا بانتصار رأيه ولو خالف الحقيقة.

حين تتحول الذاكرة الدينية إلى حجاب

كان أهل الكتاب يحملون ذاكرةً دينيةً عريقة: أنبياء، وكتب، وشرائع، ومواقف نجاة وابتلاء. وكان المفترض أن تكون هذه الذاكرة جسراً للتعرف إلى الرسالة الخاتمة، لكنها عند بعضهم تحولت إلى جدار؛ لأنهم لم يعودوا يرون تاريخ النبوة عهداً يطالبهم بمواصلة الوفاء، بل رأوه ملكية خاصة تمنحهم امتيازاً دائماً.

حين يتحول التاريخ المقدس إلى مصدر استعلاء، يفقد وظيفته التربوية. قصص الصالحين لم تُحفظ لكي يتكئ المتأخرون على فضل السابقين، بل لكي يسيروا في طريقهم؛ والنسب إلى أمة مؤمنة لا يغني عن الإيمان، كما أن الانتساب إلى منهجٍ صالح لا يغني عن الصلاح. لا تُورث النجاة بالاسم، ولا تنتقل التقوى في الدم، ولا يصبح المرء شاهداً لله مجرد أنه ينتمي إلى جماعةٍ حمل أجدادها الكتاب.

وهذا التحذير يصل إلى كل أمةٍ جاءت بعدها؛ فالمسلم لا يقرأ انحراف الأمم السابقة لينح نفسه صكاً بالأمان، بل ليعرف الطريق الذي يمكن أن يكرر به أخطاءها. قد يتحول انتسابه إلى الإسلام من تكليفٍ بالشهادة إلى شعورٍ بالاستحقاق، وقد يفاخر بالقرآن دون أن يقيم حدوده، ويعتز بالنبي ﷺ

دون أن يتخلق بهديه، ويتحدث عن مجد الأمة بينما يعني نفسه من العمل الذي يصنع المجد.

إن القرآن حين يكشف خطأ غيرنا يضع مرآةً أمامنا؛ وليس من التدبر أن نستخدم آياته لتشريح الآخرين وحدهم، ثم نخرج نحن من كل محاسبة. فالقلوب تتشابه في أمراضها، وإن اختلفت الأسماء والأزمنة، والكبر هو الكبر سواء لبس ثوب عالمٍ من أهل الكتاب أو ثوب مسلمٍ يظن أن اسمه يغنيه عن الاستقامة.

اختلافٌ يتغذى من المصالح

ليس كل تفرقٍ حادثاً فكرياً محضاً؛ فكثيرٌ من الخلافات تتغذى من مصالح خفية. قد يختلف الناس في الظاهر حول تفسير نص، بينما يدور النزاع في العمق حول من يقود ومن يُتبع، ومن يحتفظ بالنفوذ ومن يفقده. وللمصلحة قدرةٌ عجيبةٌ على إنتاج خطابٍ يبدو مبدئياً؛ إذ نادراً ما يعترف الإنسان بأنه يرفض الحق لأن الحق يهدد مكسبه، بل يصنع لرفضه أسباباً أكثر وقاراً.

ومن هنا يحتاج طالب الحق إلى شجاعة التفتيش في دوافعه، لا في أدلته وحدها. قد يكون الدليل الذي يرفعه صحيحاً في ذاته، لكنه يستخدمه لغايةٍ

فاسدة؛ وقد يكون دفاعه عن المبدأ مشوباً بحب الظهور أو تصفية الحساب. والقلب لا يُعرف فقط بما يقوله، بل بما يفرحه ويحزنه: هل يفرح لظهور الحق ولو على يد غيره، أم يحزن لأن الصواب لم يُنسب إليه؟ هل يتألم لانتهاك المبدأ في كل موضع، أم لا يراه إلا حين ينتهكه خصمه؟

إن الإخلاص الذي ستذكره الآية التالية ليس تفصيلاً تعبدياً يأتي بعد قصة التفرق، بل هو العلاج الجذري لها. ما تفرق الناس بعد البيّنة إلا حين دخلت الذوات بين العبد وربّه، وحين صار كل فريقٍ يريد أن يمتلك الحقيقة بدل أن تملكه الحقيقة. ولذلك سيعيدهم القرآن إلى الأمر الأول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

مسؤولية من قامت عليه الحجة

تقيم هذه الآية فرقاً بين حال الإنسان قبل البيان وحاله بعده. قبل أن يعرف قد يُعذر بقدر جهله وعجزه، والله أعلم بعباده وأعدل بهم، أما بعد أن تقوم الحجة فإن كل خطوة تصبح أثقل وزناً؛ لأن المرء لم يعد يتحرك في ظلام كامل. ومن الخطأ أن يطلب الإنسان المزيد من البراهين وهو لا يعمل بما ظهر له منها؛ فالمشكلة ليست دائماً أن الطريق لم يكتمل أمامه، بل أنه لم يخطُ الخطوة التي عرفها.

كم من إنسان يقول: لو اتضح لي الأمر لفعلت، بينما في حياته أوامر واضحة يؤجلها كل يوم! إنه يفاوض الغيب على مزيدٍ من الضوء، لكنه لا يستخدم المصباح الذي في يده. والهداية ليست مكافأةً للفضول الذهني وحده، بل ثمرةٌ كذلك للصدق العملي؛ فمن استجاب لما علم فتح الله له أبواباً مما لم يعلم، ومن أعرض عن الواضح قد يُحرم بركة المزيد.

إن الحجة لا تقام على العقل فحسب، بل قد تأتي الإنسان عبر اهتزازات حياته: موتٌ يكسر وهم الخلود، أو مرضٌ يفضح هشاشة الجسد، أو خسارةٌ تكشف زيف ما تعلّق به، أو نعمةٌ تستنهض فيه سؤال الشكر، أو آيةٌ يسمعها في لحظةٍ كأنها نزلت إلى جرحه مباشرة. هذه كلها نوافذ، لكن الإنسان قد يغلقها واحدةً بعد أخرى حتى يألف الظلام، ثم يزعم أن النور لم يصل.

من معرفة الحق إلى احتمال كلفته

ليس الصدق أن تبحث عن حقيقةٍ توافقك، بل أن تكون مستعداً لاحتمال كلفة الحقيقة حين تخالفك. وقد تكون كلفتها اعترافاً بخطأ قديم، أو اعتذاراً لمن ظلمته، أو ردّ مالٍ أخذته، أو نزولاً عن موقعٍ لا تستحقه، أو مفارقة عادةٍ تحبها. في هذه اللحظة تحديداً يتحول الإيمان من فكرة جميلة إلى عبودية؛ لأنك لم تعد تعجب بالحق من بعيد، بل تدفع ثمن الانتماء إليه.

ومن أجل ذلك كان السابقون إلى الإيمان عظماء؛ لم يكتفوا بأن يروا
البيّنة، بل قبلوا أن تعيد ترتيب حياتهم. ترك بعضهم مكائته، وخسر بعضهم
ماله، وفارق بعضهم أهله ودياره، لا لأن الألم محبوبٌ لذاته، بل لأنهم وجدوا
حقيقةً لا يساوي فقدُ الأشياء شيئاً أمام فقدِها. لقد فهموا أن أئمن ما يملكه
الإنسان ليس ما في يده، بل قدرته على ألا يبيع يقينه بما في يده.

أما الذين تفرقوا بعد البيّنة فقد أراد بعضهم حقاً لا يكلفهم شيئاً: نبياً يأتي
وفق شروطهم، ووحياً يحفظ امتيازاتهم، وهدايةً لا تطلب منهم التواضع.
لكن الحقيقة التي تشكل وفق رغباتنا ليست حقيقةً تهدينا، بل مرآةً نعبد فيها
أنفسنا.

السورة تحاكم قارئها

ينبغي ألا نمر بهذه الآية ونحن مشغولون فقط بأولئك الذين تفرقوا في زمن
النبوة؛ فهي تسأل كل قارئ: كم من بينةٍ جاءتكَ ثم فرقت بينك وبين
واجبك؟ كم مرةً عرفت الصواب، لكنك صنعت بينك وبينه خلافاً طويلاً
كي تؤجل الانقياد؟ كم موقفاً كان واضحاً في ضميرك، ثم استدعيت الضباب
لأن الوضوح لم يكن في مصلحتك؟

إن النفس بارعةٌ في تحويل الأمر البسيط إلى مسألةٍ معقدة حين لا تريد الامتثال. تعرف أن عليها أن تعتذر، فتبدأ في تحليل أخطاء الطرف الآخر؛ وتعرف أن عليها رد الحق، فتبحث في تفاصيل قديمة تخفف مسؤوليتها؛ وتعرف أن عليها التوبة، فتدخل في نقاشٍ طويل حول الظروف والضغط. وهكذا لا يكون التعقيد دائماً خاصيةً في المسألة، بل قد يكون وسيلةً نفسيةً للهروب من جوابٍ واضح.

البينة لا تطلب من الإنسان أن يعرف كل شيء قبل أن يتحرك، وإنما أن يكون صادقاً مع ما عرف. فليس الطريق إلى الله خالياً من الأسئلة، لكن الأسئلة الصادقة تختلف عن الأسئلة التي تُستعمل متاريس ضد الهداية. الأول يسأل ليفهم ثم يمضي، والآخر يسأل ليظل واقفاً حيث هو.

من التفرق إلى استعادة المركز

بعد أن كشفت الآية داء التفرق، تنهياً السورة لترد الإنسان إلى مركز الدين الذي إذا استقام اجتمعت حوله بقية الحياة: الله وحده. فكل تفرق مذموم يبدأ حين نعدد المراكز في القلب؛ هذا يريد رضا الناس، وذلك يريد مجد الجماعة، وثالث يريد حفظ المصلحة، ثم يأتي أمر الله واحداً فلا يجد قلباً واحداً يستقبله.

لهذا ستكون الآية الخامسة من أكثر آيات السورة جمعاً لمعنى الدين: عبادة لله، وإخلاصٌ يطهر الوجهة، وخيفيةٌ تفارق مسالك الانحراف، وصلاةٌ تصل القلب بالسماء، وزكاةٌ تحرر اليد من الشح، ثم كلمةٌ جامعة: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

فالدين في جوهره ليس ذلك الركام الذي تصنعه العصبيات حول النص، ولا الجدل الذي يضاعف المسافات بين الناس، بل عودةٌ صافية إلى الله؛ أن يخرج الإنسان من ازدحام الأرباب الخفية، ويقف بقلبه كله أمام الواحد، فلا يطلب بعمله إلا وجهه، ولا يجعل عبادته طريقاً إلى تعظيم نفسه، ولا يحمل الكتاب ليعلو به على الخلق، بل ليهتدي به إلى الخالق.

عند هذه النقطة يبدأ العلاج: ليس بمزيدٍ من الادعاءات، وإنما بتطهير النية؛ لأن الجماعات لا تنجو من التفرق ما دامت النفوس متفرقة المقاصد، والعلم لا يثمر ما دام صاحبه يطلب به السيادة، والعبادة نفسها قد تصبح حجاباً إذا دخلها الرياء. لذلك يأخذنا القرآن بعد مشهد الخلاف إلى محراب الإخلاص، حيث تسقط كل الأسماء، ولا يبقى بين العبد وربّه إلا سؤال واحد:

لمن كان هذا الدين في قلبك؟

الفصل الرابع

جوهر الدين: حين يخرج القلب من عبادة نفسه

الآية الخامسة

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

بعد أن كشفت السورة التفرق الذي وقع عقب مجيء البينة، ردت الناس إلى الأصل الذي كان يمكن أن يحفظهم من ذلك كله: لم يطلب منهم أن يجعلوا الدين ميداناً للسيادة، ولا أن يحولوا الكتاب إلى رايةٍ للعصبية، ولا أن يتخذوا العلم سلماً يعلو به بعضهم على بعض؛ وإنما أُمروا بأمرٍ واضحٍ في لفظه، عميقٍ لا تنتهي آفاقه في أثره: أن يعبدوا الله وحده، وأن يطهروا له الوجهة، وأن يميلوا عن كل باطل، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

إنها عودةٌ بالدين من ضجيج الجدل إلى صفاء العبودية، ومن التنافس على امتلاك الحقيقة إلى الخضوع لها، ومن كثرة الأسماء التي يتعاضد بها الناس إلى الاسم الوحيد الذي يحررهم جميعاً: عباد الله. فحين يعرف الإنسان أنه عبد، تسقط أوهام الاستغناء والسيادة المطلقة، وحين يعرف أن الله وحده هو المعبود، تنهوى الأرباب التي صنعها الخوف والطمع والعادة والنسب والمال.

هذه الآية لا تختصر جملةً من التكاليف فحسب، بل ترسم هندسة الإنسان المؤمن من الداخل إلى الخارج: تبدأ من المعبود ﴿الله﴾، ثم من الوجهة الباطنة ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ثم من سلامة المسار ﴿حُنَفَاءَ﴾، ثم من الصلة التي تقيم الروح ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ثم من البرهان الاجتماعي الذي يطهر المال ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾. فالعبادة مركز، والإخلاص روح، والحنيفية اتجاه، والصلاة صلة، والزكاة أثر؛ فإذا اجتمعت لم يبق الدين فكرةً في الذهن، بل صار كياناً حياً ينتظم القلب والجسد والمال والمجتمع.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾

العبودية التي تحرر الإنسان

قد يبدو للوهلة الأولى أن العبودية نقيض الحرية، لكن القرآن يكشف أن الإنسان لا يتحرر حقاً إلا حين يعبد الله؛ لأنه إن لم يخضع للحق خضع للهوى، وإن لم يتعلق بالخالق تعلق بالخلق، وإن لم يزن نفسه بميزان السماء عاش أسيراً لنظرات الناس وتقلب أذواقهم. ليس السؤال: هل سيعبد الإنسان؟ بل: من سيعبد؟ فالقلب مفطورٌ على التعالق والرجاء والخوف والتعظيم، فإن لم تتوحد هذه المعاني لله، توزعها آلهةٌ خفية لا تُرى في المعابد، لكنها تحكم القرارات من داخل النفس.

قد يعبد الإنسان صورته في أعين الآخرين، فيقضي حياته يرمم انطباعاتهم عنه، ويقول ما يرضيهم، ويخفي ما يغضبهم، حتى يصبح جمهور الناس رباً موزعاً على آلاف الوجوه. وقد يعبد المال، لا بأن يسجد لقطعة نقدية، بل بأن يطيعه حين يأمره بالبخل، ويبيع من أجله ضميره، ويزن به كرامة الناس. وقد يعبد السلطة، فيرى القرب منها نجاةً ولو أبعدته عن الحق، ويرى غضبها نهايةً ولو كان الله راضياً عنه. وقد يعبد فكرته عن نفسه، فيرفض كل نقدٍ يهددها، ويفضل أن يخسر الحقيقة على أن يخسر صورة العصمة التي رسمها لذاته.

لهذا لم يأت التوحيد ليضيف معبوداً إلى قائمة المعبودات، بل ليهدم القائمة كلها، ويعيد القلب إلى مركزه الواحد. ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تعني أن لا يبقى في أعماق الإنسان سلطانٌ يعلو على أمر الله، وأن لا تكون طاعة المخلوق مقدمةً على طاعة الخالق، وأن لا يتحول الحب أو الخوف أو الطمع إلى قيدٍ يجره بعيداً عن الحق.

والعبادة في القرآن أوسع من الشعائر على جلالها؛ إنها اسمٌ لحياةٍ تتجه إلى الله، فتدخل الصلاة فيها كما يدخل الصدق والعدل والرحمة وأداء الأمانة وكف الأذى وطلب الحلال. ليس العابد من يطيل الوقوف في المحراب ثم يخرج منه ليظلم الناس؛ فالذي يعبد الله في المسجد ثم يعبد مصلحته في السوق قد قسم قلبه بين محرابين. العبادة الحقيقية تجعل الحياة كلها أرضاً لامتناهية:

يكون التاجر عبداً حين يصدق، والحاكم عبداً حين يعدل، والكاتب عبداً حين لا يبيع كلمته، والعالم عبداً حين يقول «لا أعلم»، والقوي عبداً حين يكف يده عن الضعيف.

إن الله غنيٌّ عن عبادة العالمين؛ فلا تزيد طاعتنا في ملكه، ولا تنقص معاصينا من سلطانه، لكننا نحن الذين نحتاج إلى العبادة كي نستعيد ترتيب أرواحنا. الصلاة لا تمنح الله شيئاً كان يفتقده، والزكاة لا تملأ خزان السماء، وإنما تملأ الروح بمعنى العبودية، وتتقذ الإنسان من التبعثر بين ما يخاف وما يرجو.

حين يعبد الإنسان الله لا تخفني آلامه، لكنها تستعيد معناها؛ ولا تتوقف خساراته، لكنها لا تعود قادرةً على تحطيم مركزه؛ فقد يخسر مالا دون أن يخسر نفسه، ويفقد حبيباً دون أن يفقد ربه، ويُحرم من اعتراف الناس دون أن يشعر أن وجوده صار عدماً. إن للعبودية قدرةً على جمع شتات الروح؛ لأنها تعلق المتغير بالثابت، والفقير بالغني، والضعيف بالقوي، والفاني بالحي الذي لا يموت.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

المعركة الصامتة في أعماق العمل

لم تقل الآية: ليعبدوا الله فقط، بل أردفت: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ لأن صورة العبادة قد تقوم بينما روحها غائبة. قد ينخي الجسد لله والقلب ملتفت إلى الناس، وقد تتحرك الشفتان بالذكر بينما تنتظر النفس ثناء السامعين، وقد ينفق المرء ماله لا حباً لله، بل ليشترى به صورةً أخلاقيةً في المجتمع. ومن هنا كان الإخلاص أشق أعمال القلب؛ لأنه لا يتعلق بما يراه الناس، بل بما يعلمه الله من الوجهة الخفية التي تحرك الفعل.

الإخلاص أن يتجه العمل إلى الله دون أن تُجعل العبادة وسيلةً إلى غرضٍ ينافس رضاه. وليس معناه أن الإنسان لا يشعر بفرح الثناء أو ألم التجاهل، فهذه خواطر بشرية قد تطرق القلب، وإنما معناه أن لا يصبح ثناء الناس هو البوصلة التي يبدأ العمل ويتوقف تبعاً لها. المخلص قد يفرح بالكلمة الطيبة، لكنه لا يبيع الحق ليحصل عليها، وقد يتألم إذا جُحد فضله، لكنه لا يترك واجبه لأن الناس لم يصفقوا له.

إن أخطر الأصنام ليست دائماً تلك التي تقف خارج الإنسان؛ بل الصنم الذي يصنعه من ذاته داخل العبادة. فقد يتخلى عن المال لكنه لا يتخلى عن حب المكانة، ويزهد في المتاع ليشتهر بين الناس بالزهد، ويتواضع في العبارة ليجمع لنفسه ثناء المتواضعين. والنفس قادرة على أن تتخفى في ثياب الفضيلة،

فتتنازل عن لذة ظاهرة لتحصل على لذة أدق: أن يراها الناس أصفى منهم وأقرب إلى الله.

لهذا كان الإخلاص عملية تطهيرٍ مستمرة، لا حالةٍ ينجزها المرء مرةً ثم يطمئن إليها. كل عملٍ يحتاج إلى تفتيشٍ قبل بدايته وأثناءه وبعده: لماذا أبدأ؟ لمن أستمّر؟ ولمن أحنّ إذا لم تُعرف جهودي؟ وقد يبدأ العمل لله ثم يدخل عليه حب الذكر، وقد يبدأ مشوّباً ثم يجاهد صاحبه حتى يصفو. والقلوب بين إقبالٍ وإدبار، لذلك لا يليق بالمرء أن يغتر بإخلاصه، لأن رؤيته لنفسه مخلصاً قد تكون باباً جديداً لدخول العُجب.

الإخلاص ألا يحتاج طاعتك إلى مسرح، أن تستطيع أن تكون صالحاً حين لا يراك أحد، وأن تبذل المعروف لمن لن يكتب عنك، وأن تدافع عن غائبٍ لا يعلم أنك دافعت عنه، وأن تكفّ عن المعصية لا لأن سمعتك مهددة، بل لأن نظر الله إليك أعظم في قلبك من نظر البشر.

وكم من أعمالٍ صغيرة رفعتها النية حتى بلغت منازل عظيمة، وكم من أعمالٍ ضخمة أفرغها الرياء حتى لم يبق منها إلا صخبها! فالسما لا تزن الأعمال بأحجامها الظاهرة وحدها، بل بقلوب أصحابها. قد تكون كلمةٌ رحمةٌ قيلت في خفاء أثقل

عند الله من خطبةٍ طويلةٍ طُلِبَ بها التصدر، وقد يكون درهمٌ خرج من يد فقير بإخلاصٍ أوسع في الميزان من مالٍ كثير خرج ليراكم صاحبه مجده.

والإخلاص لا يعني انسحاب المؤمن من المجال العام خوفاً من الرياء؛ فالعمل الذي يحتاجه الناس لا يُترك لمجرد أن النفس قد تطمع في الثناء، وإنما تُجاهد النفس ويستمر الخير. قد يكون ترك العمل لأجل الناس وجهاً خفياً من وجوه الالتفات إليهم؛ لأن الإنسان جعل حضورهم وغيابهم حاكماً على طاعته. المخلص يعمل حين يجب العمل، ويخفي حين يكون الإخفاء أصلح، ويظهر حين تكون القدوة أو المصلحة في الإظهار، ثم يظل قلبه يسأل الله النجاة من حظوظ نفسه.

الدين لله لا للذات ولا للجماعة

يقول النص: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي أن الدين كله لله، لا يُتقرب به إلى سلطان، ولا يُستعمل لتضخيم جماعة، ولا يتحول إلى ملكية خاصة يحتكر بها فريقٌ حق الحديث باسم الله. الجماعة وسيلةٌ إلى التعاون على الحق، فإن صارت ذاتها غايةً تدور الأحكام حول مصالحها، تحولت من خادمةٍ للدين إلى منافسٍ خفي له.

قد ينتصر الإنسان لجماعته حين تصيب وتخطئ بالميزان نفسه، فيصبح انتماءه هو المرجع، ويغدو الحق تابعاً لموقع القائل: إن قاله القريب عظمه، وإن قاله الخصب شوهه. لكن الإخلاص لله يطالب المؤمن أن يكون ولاؤه للحق أسبق من ولائه للأسماء؛ فلا يكذب ليحمي صالحاً، ولا يبرر الظلم لأنه صدر من محبٍّ، ولا يهدر الفضيلة لأنها ظهرت عند مخالف.

إن من أدق علامات الإخلاص أن يكون للإنسان ميزانٌ واحد؛ يغضب للظلم من صدر، ويفرح بالعدل ممن أقامه، ولا يحول الأخلاق إلى أسلحةٍ انتقائيةٍ يستخدمها ضد خصومه ثم يعطيها عند أصحابه. فمن كان الدين لله لم يجعل أحكام الله جزءاً من معركة الذات، ولم يطلب من النص أن يخاصم خصومه بالنيابة عنه، بل سمح له أن يحاكمه هو أولاً.

﴿حُنْفَاءٌ﴾

الميل عن الباطل إلى استقامة التوحيد

الحنيف هو المائل عن الشرك والباطل إلى التوحيد والاستقامة؛ فكأن الطريق البشري قد امتلأ بانحرافاتٍ موروثه، ولا يكفي أن يقف الإنسان محايداً بينها، بل لا بد أن يميل عنها عمداً، وأن يتحرك نحو الحق بإرادةٍ واعية.

الحنيفية ليست تردداً بين سبيلٍ متساوية، وإنما مفارقةٌ لكل ما يناقض عبادة الله.

وفي لفظ ﴿حَنَفَاءٌ﴾ حركةٌ لا سكون؛ لأن التوحيد ليس معلومةً محفوظة، بل انحيازٌ دائمٌ لله في مواجهة الجاذبيات التي تسحب القلب. كل يومٍ تعرض الحياة على الإنسان آلهةً جديدة: منفعةٌ تخالف المبدأ، أو خوفاً يطالبه بالصمت، أو شهرةً تغريه بأن يقول ما لا يؤمن به. وفي كل موقف يحتاج أن يجدد حنيفيته، وأن يميل عن النداء المضلل نحو صوت العبودية.

والحنيف لا يظن أن كثرة السائرين في جهةٍ ما تجعلها مستقيمة؛ فإبراهيم عليه السلام وقف وحده أمام عالمٍ من الأصنام، ولم يقس الحقيقة بعدد المؤمنين بها. إن من خصائص الحنيفية القدرة على مفارقة السائد حين ينحرف، لا رغبةً في الشذوذ، ولا حباً في المخالفة، بل وفاءً للحق. فليس كل خروجٍ عن الجمهور بطول، كما أن ليس كل موافقةٍ له صواباً؛ والميزان هو البيّنة، لا لذة الاختلاف ولا رهبة العدد.

والحنيفية كذلك ترفض الانحرافين المتقابلين: الغلو الذي يزيد في الدين ما لم يأذن به الله، والتفريط الذي ينتقص منه إرضاءً للهوى. الاستقامة ليست قسوةً على النفس باسم الدين، ولا تميعاً للتكليف باسم الرحمة؛ بل وقوفٌ عند

مراد الله، دون أن يجعل الإنسان مزاجه مصدر التشريع. فالذي يبالغ من عند نفسه قد يعبد صورةً صنعها عن الدين، كما أن الذي يتساهل بلا برهان يعبد هواه؛ وكلاهما يحتاج إلى العودة للميزان القيم.

حنيفية إبراهيم: وحدة الطريق عبر الرسالات

تعيد كلمة ﴿حَنَفَاءُ﴾ الذاكرة إلى إبراهيم عليه السلام، ذلك الرجل الذي حطم الأصنام في الخارج بعدما تحرر منها قلبه في الداخل، وأقام معنى الدين قبل أن تتشعب الأسماء والانتسابات. لقد أرادت السورة أن تقول لأهل الكتاب: إن الرسالة الخاتمة لا تدعوكم إلى قطيعةٍ مع أصل النبوة، بل تعيدكم إليه؛ فالعبادة الخالصة لله ليست بدعةً جاء بها محمد ﷺ، وإنما هي قلب الرسالات كلها.

الأنبياء لم يؤسس كل واحدٍ منهم ديناً ينافس به الآخرين؛ وإنما جاءوا من مصدرٍ واحد، يحملون أصلاً واحداً: أن يُعبد الله وحده ويُطاع أمره. وقد اختلفت بعض الشرائع والتفصيلات بحكمة الله، لكن التوحيد لم يتبدل، والإخلاص لم يتغير، والخضوع لله لم يكن في عصرٍ فضيلةً ثم صار في عصرٍ آخر زائداً عن الحاجة.

إن التفرق حدث حين تحولت الصلة بالنبي إلى عصبية له في مواجهة بقية الأنبياء، بدل أن تكون اقتداءً به في التسليم لله. فالنبي الحق لا يدعو الناس إلى عبادته، ولا إلى رفض من أرسله الله من بعده، بل يربطهم برب الأنبياء جميعاً. ومن صدق في اتباع موسى وعيسى عليهما السلام قاده صدقه إلى الإيمان بحمد ﷺ حين قامت بينته، لأن الوفاء للرسول ليس تعلقاً بشخصه منفصلاً عن الله، بل طاعة لله الذي أرسله.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

إقامة الإنسان قبل إقامة الحركة

لم تقل الآية: ويؤدوا الصلاة، بل قالت: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. والإقامة أوسع من مجرد الأداء؛ إنها أن تؤدَّى الصلاة بأركانها وشروطها ووقتها وخشوعها، وأن تحتل في الحياة مكانها الذي يجعلها قائمةً في القلب، مقيمةً لغيرها من المعاني. الصلاة التي تُقام لا تمر على يوم الإنسان كحادثةٍ معزولة، بل تعيد تنظيم يومه حول لقاء الله.

نحس مراتٍ يناديه النداء ليقطع اندماجه في العالم، ويقف بين يدي من يملك العالم. يكون غارقاً في حساب الأرباح، فتأتي الصلاة لتخبره أن رزقه ليس في يد الأرقام وحدها؛ ويكون منجرفاً في خصومة، فترده إلى مقام

العبد الذي سيقف وخصمه أمام حكمٍ واحد؛ ويكون منتفخاً بنجاحه، فيضع
جبهته على التراب، فيتعلم أن أعلى مواضع الروح يبدأ حين ينخفض أعلى
مواضع الجسد لله.

الصلاة ليست هروباً من الحياة، بل عودةً إليها بقلبٍ مصحح. يدخلها
الإنسان محملاً بغبار الساعات، فيقف بين يدي الله، ويقرأ كلامه، ويركع
لعظمته، ويسجد لقربه، ثم يخرج إلى الناس وقد تذكر الأصل الذي نسيه.
وكلما حاولت الدنيا أن تبخله استردته الصلاة؛ كأنها خمس نوافذ تفتحها
السماء في جدار اليوم حتى لا يختنق القلب داخل المادة.

وفي الصلاة إعلانٌ يومي عن سقوط الكبرياء؛ فالملك والفقير، والعالم
والعامي، والرئيس والمرؤوس يقفون في صفٍ واحد، يتجهون إلى قبلةٍ واحدة،
ويركعون لرَبٍّ واحد. لا تتقدم المكانة الاجتماعية بصاحبها في ميزان
السجود، ولا يمنح المال جبهة صاحبه تراباً ألين من تراب الفقير. إن الصلاة
تعيد تدريب المجتمع على حقيقة المساواة أمام الله، لكن هذه الحقيقة تفقد
أثرها إذا خرج المصلون من المسجد فعادوا إلى بناء طبقات الكبر والاحتقار.
والصلاة لا تُقاس فقط بمقدار ما يشعر به الإنسان داخلها، بل بما تمنعه
منه خارجها؛ فهي موعدٌ للتزود كي يستطيع أن يقول للحرام: لا، وللظلم: لا،

ولهواه: لست سيدي. فإذا لم تحدث الصلاة أثراً في أخلاق صاحبها، فعليه أن يراجع مقامها في قلبه، لا أن يتركها؛ لأن الخلل لا يعني أن الدواء غير نافع، بل أن تناوله لم يبلغ موضع الداء.

وقد يصلي الإنسان بجسده بينما يظل قلبه خارج الصلاة يتابع صفقاته وخصوماته وآماله؛ وهذه من طبيعة المجاهدة البشرية، فلا ينبغي أن يقوده نقص الخشوع إلى اليأس، بل إلى العودة. كلما شرد قلبه رده، وكلما غلبته الدنيا جدد الوقوف؛ فالخشوع لا يأتي دائماً دفعةً واحدة، وإنما ينو حين يعرف المصلي من يناجي، ويفهم ما يقول، ويهيئ قلبه قبل أن يكبر.

إن أول كلمة في الصلاة «الله أكبر» ليست مفتاحاً لفظياً للدخول فحسب، بل حكمٌ ينبغي أن يسري في الحياة كلها: الله أكبر من الخوف الذي يمنعك من الحق، وأكبر من المال الذي يساومك على ضميرك، وأكبر من الحزن الذي يوهمك أن الأبواب أغلقت، وأكبر من ذاتك حين تريد أن تنتقم، وأكبر من المخلوق الذي علق قلبك به. فإذا خرج المصلي من صلاته وظل كل شيء في نفسه أكبر من أمر الله، فقد قال بلسانه ما لم يكتمل بعد في وجدانه.

جاءت الصلاة بعد الإخلاص والحنيفية لأنها أعظم ما يجدد هذه المعاني في القلب. فالنية تلوث في زحام العمل، والنفس تسترد أصنامها الصغيرة، ثم يقف العبد بين يدي الله بلا وسيط، فيعيد توجيه روحه. وفي كل ركعة يقول بمعنى حاله: تركت العالم خلف ظهري وجئت إليك؛ فلا تجعلني أعود إليه عبداً لما تركت.

والصلاة اختبار للإخلاص؛ لأنها تكرر في أوقاتٍ قد لا يراه فيها أحد، وفيها ما يشق على النفس الكسولة، ولا تتحقق حقيقتها بمجرد التصفيق الاجتماعي. قد يستطيع المرء أن يمثل موقفاً كريماً أمام الجمهور، لكنه حين يقوم من فراشه وحده ليصلي الفجر يقدم شاهداً آخر؛ شاهداً لا يحتاج إلى جمهور، لأن الله وحده هو المقصود.

وما أجمل أن تكون للمؤمن أعمالٌ لا يعرفها أحد؛ ركعاتٌ في سكون الليل، ودعواتٌ لأناسٍ لا يعلمون، ودمعاتٌ لم ترها عين. تلك الخبايا تحيي الروح من أن تتحول إلى واجهةٍ عامة، وتعيدها إلى مساحتها الصادقة مع الله؛ فكلما كان للإنسان سرٌّ صالح بينه وبين ربه، وجد ملجأً من ضجيج الصورة التي يعرفه الناس بها.

﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾

حين يبرهن المال على صدق القلب

بعد الصلاة تأتي الزكاة، فينتقل الدين من المحراب إلى المال، ومن المناجاة إلى الاجتماع، ومن علاقة العبد بربه إلى مسؤوليته تجاه عباده. فليس الدين وجداناً خاصاً ينعم صاحبه بدفته ثم يترك الفقير للبرد؛ ولا خشوعاً في الصوت مع قسوة اليد، بل لا بد أن يظهر أثر التوحيد في الطريقة التي يرى بها الإنسان ما يملك.

المال من أشد مواضع الامتحان؛ لأنه يمنح صاحبه شعوراً بالأمان والقدرة والاستقلال، وقد يتسلل من اليد إلى القلب حتى يظن الإنسان أنه يملك المال، بينما يكون المال هو الذي يملكه. والزكاة تكسر هذا الاستحواذ؛ فهي تقول للغني إنك مستخلف لا مالكٌ مطلق، وإن في مالك حقاً معلوماً لم تجده أنت بكرمك، بل أوجبه الله للفقير.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُوا﴾ يحمل معنى الإيصال والأداء؛ فالزكاة ليست منةً يتفضل بها الغني على المحتاج، وإنما حقُّ يرده إلى موضعه. ومن يستشعر أنه يؤدي واجباً لا يجرح كرامة الآخذ، ولا يستعرض صدقته عليه، ولا يحوله

إلى خلفيةٍ لصورةٍ إعلامية. يعطيه وهو يعلم أن الفقير قد أحسن إليه من وجهه؛ إذ قبل منه ما يطهر ماله، وكان سبباً في أداء فريضته.

الزكاة تطهر الغني من الشح، وتعين الفقير على الحاجة، وتطهر المجتمع من حقد الطبقات حين يرى الضعيف أن له موضعاً في ضمير القادر. إنها ليست علاجاً حساسياً للفقير وحده، بل تربيةً للإنسان على أن ما في يده مرتبطٌ بحقوق غيره، وأن النجاح الفردي لا يكتمل في مجتمع يسقط أفرادُه خلف أسوار الحرمان.

إن المال الذي لا يعبر منه شيءٌ إلى الناس يتحول إلى جدارٍ حول صاحبه، أما المال الذي يجري في وجه الخير فيصبح جسراً. والماء إذا جرى بقي نقياً، وإذا حُبس طويلاً تغير؛ وكذلك النعمة، تحيا بالشكر والبذل، وتنعفن حين تُغلق عليها أبواب الشح.

والزكاة ليست دعوةً إلى إهمال الكسب، بل إلى تطهيره؛ فالإسلام لا يمدح الفقر لذاته، ولا يجرم الغنى، وإنما يسأل: من أين جاء المال؟ وفيم أنفق؟ وما الذي صنعه في قلب صاحبه؟ قد يكون الغني شاكراً يجعل ماله رحمة، وقد يكون الفقير صابراً عزيز النفس، وقد يفسد هذا وذاك إذا دخلهما السخط أو

الكبر. الميزان ليس مقدار ما تملك، بل موقع ما تملك منك: أفني يدك هو أم في قلبك؟

الصلاة والزكاة: بناء الإنسان وبناء المجتمع

يجمع القرآن بين الصلاة والزكاة مراراً؛ لأن الدين الذي يصل القلب بالسماء ينبغي أن يصل اليد بالإنسان. الصلاة تمنع الروح أن تجف داخل المادة، والزكاة تمنع الروحانية أن تتعزل عن آلام المجتمع. الأولى تقول للإنسان: لست جسداً يستهلك، والثانية تقول له: لست فرداً يعيش وحده. بالصلاة يُهدم استعلاء النفس أمام الله، وبالزكاة يُهدم أنانيها أمام الناس؛ في السجود يضع الإنسان جبهته على الأرض، وفي الزكاة يفتح قبضته التي شدت على المال. وكأن كمال العبودية يحتاج إلى انحناءين: انحناء القلب والجسد للخالق، وانحناء الرحمة نحو المخلوق؛ دون أن يكون الثاني عبادةً له، بل طاعةً لله فيه.

وإذا انفصلت الصلاة عن الزكاة نشأ تدينٌ فردي قد يكثر فيه الذكر ويقل فيه الشعور بالناس، وإذا انفصلت الزكاة عن الصلاة تحول العطاء إلى نشاطٍ اجتماعي قد يطلب المجد البشري ويغفل عن الله. أما حين تجتمعان، يصبح البذل عبادة، وتصبح العبادة قوةً أخلاقيةً تتحرك في المجتمع.

إن الأمة لا تُبنى بالقلوب الصالحة وحدها إن لم يتحول صلاحها إلى نظم عدلٍ وتكافل، ولا تُبنى بالنظم وحدها إن خلت القلوب من مراقبة الله؛ فالقانون يستطيع أن يلاحق الجريمة بعد وقوعها، لكن الخشية تمنع كثيراً منها قبل أن يراها أحد. والزكاة تجمع بين الأمرين: فريضة ذات مقصدٍ تعبدي، ونظامٌ ذو أثرٍ اجتماعي؛ فهي تربي الضمير وتعيد في الوقت نفسه توزيع جزءٍ من الثروة حيث توجد الحاجة.

﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾

الدين المستقيم الذي يقيم الحياة

تختتم الآية بهذا التقرير الجامع: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي ذلك الدين المستقيم، دين الملة والشريعة القائمة بالحق. ليس ديناً معوجاً يرهق الإنسان بالتناقضات، ولا ديناً طبقياً يمنح الخلاص لقومٍ بأسمائهم، بل طريقٌ يقوم على توحيد الله وإخلاص القصد واستقامة الاتجاه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وسَيِّ ديناً قيماً لأنه مستقيمٌ في نفسه، مقيمٌ للإنسان من عثرته، ومقيمٌ للحياة على ميزانها. إنه يقيم العقل حين يحرره من الخرافة، ويقوم القلب حين يحرره من التعلق بالخلق، ويقوم الأخلاق حين يمنحها مرجعاً لا يتغير، ويقوم المجتمع حين يجعل للقوي حدوداً وللضعيف حقوقاً.

وما أوجز هذا البناء وما أعمقه: لا متاهةً لاهوتيةً لا يبلغها إلا خاصة المتخصصين، ولا طقوساً سريةً معقدة، وإنما توحيدٌ وإخلاصٌ واستقامةٌ وصلاةٌ وزكاة. ومع بساطة الألفاظ، فإن الوفاء بها يستغرق العمر كله؛ لأن قول «الله وحده» سهلٌ على اللسان، لكنه يعني تحرير كل زاوية في النفس من سلطان ما سواه.

إن قيمة الدين لا تظهر في كثرة الحديث عنه فحسب، بل في الإنسان الذي يقيمه: هل صار أصدق؟ هل تحرر من عبودية المصلحة؟ هل رقّ قلبه للضعيف؟ هل أصبح المال في يده لا في روحه؟ هل صار اختلافه مع الآخرين أكثر عدلاً، وسلطته أكثر تواضعاً، وخلوته أكثر طهارة؟ إن لم تقع هذه التحولات، فثمة مسافةٌ ما تزال قائمةً بين صورة الدين وحقيقته.

حين يعود الدين بسيطاً عميقاً

كثيراً ما يضيف البشر إلى الدين طبقاتٍ من العصبية والمصلحة والجدل حتى تختفي بساطته الأولى. يصبح السؤال: ما اسم جماعتك؟ قبل أن يكون: لمن أخلص قلبك؟ ويصبح الاهتمام بالمظهر الذي يميز الفريق أكبر من الاهتمام بالصلاة التي تصل العبد بربه، والزكاة التي تصل الغني بالفقير. ثم

تأتي هذه الآية كيدٍ تمسح الغبار المتراكم وتكشف الجوهرة: اعبدوا الله مخلصين، كونوا حنفاء، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة.

ليست هذه البساطة اختزالاً مخلاً؛ فالسورة لا تنفي بقية الشرائع والأحكام، وإنما تضع الأصول التي تمنحها الحياة والاتجاه. التفاصيل من دون إخلاص قد تصبح جسداً بلا روح، والإخلاص الذي يدعي صاحبه الاستغناء عن الشرائع شعوراً بلا برهان. ولذلك جمعت الآية بين الباطن والظاهر: إخلاصٌ في القلب، وحنيئةٌ في الوجهة، وصلاةٌ تقام بالجوارح، وزكاةٌ تؤدي من المال.

هنا تتجلى وحدة الإنسان في الإسلام؛ فهو ليس روحاً بلا جسد، ولا جسداً بلا روح، ولا فرداً بلا مجتمع، ولا عضواً اجتماعياً بلا خلوةٍ مع ربه. يصلي وحده ويصلي في جماعة، يخشع في محرابه ويؤدي حق الفقير في ماله، يحمل نيةً لا يراها الناس وقيم عملاً ينتفعون به. وما أجمل الدين حين لا نتقاتل هذه الأبعاد في داخله، بل تتساند لتصنع إنساناً واحد الوجهة.

سؤال الإخلاص الأخير

قد يستطيع الإنسان أن يخدع الناس بصورة عمله، وربما خدع نفسه زمناً، لكنه لا يستطيع أن يخدع الله؛ فالله يعلم اللحظة التي وُلد فيها الفعل، والدافع

الذي حرّكه، والشيء الذي كان القلب ينتظره في الخفاء. وهذه الحقيقة ليست مصدر رعبٍ للمخلصين فحسب، بل مصدر عزاءٍ عظيمٍ أيضاً؛ فقد يعمل الإنسان خيراً لا يراه أحد، ويُساء فهمه، ويُنسب فضله إلى غيره، لكنه يعرف أن العمل لم يضع، لأن العين التي قصدها رأته.

كم من قلبٍ أنقذه الإخلاص من مرارة التجاهل! حين يعمل الإنسان للناس يصبح أسيراً لذاكرتهم المتقلبة: إن مدحوه ازدهر، وإن نسوه ذبل. أما إذا عمل لله، فإنه يتحرر من سوق التقييم البشري؛ لا يزدري ثناء الناس ولا يتغذى عليه، ولا يعتمد الغموض ليبدو زاهداً، وإنما يمضي مستنداً إلى علم الله به.

والإخلاص لا يجعل المرء بارداً تجاه ثمرة عمله؛ بل قد يحرص على نجاحه لأنه يريد نفع الخلق ورضا الله، لكنه لا يجعل فشل النتيجة حكماً على قيمة الطاعة. قد يزرع ولا يرى الحصاد، ويقول كلمة الحق فلا يستجيب لها أحد، ويكتب نوراً يظل سنواتٍ بلا قارئ، لكن ما كان لله لا تقيسه اللحظة وحدها؛ فقد ينجي الله أثره في قلبٍ لم يلتق به صاحبه، أو في زمنٍ جاء بعده، أو يدخر له ثوابه كاملاً حيث لا تضع المقاصد الصادقة.

وهكذا تعيد الآية بناء الدين من مركزه: الله هو الغاية، والإخلاص هو الروح، والخفية هي الطريق، والصلاة هي العهد المتجدد، والزكاة هي صدق العهد في عالم المال والناس. فإذا قامت هذه المعاني صار الإنسان من أهل الدين القيم، لا بمجرد الاسم، بل بما أقامه هذا الدين في داخله.

غير أن السورة، بعد أن عرضت البيئة وكشفت التفرق وردت الدين إلى جوهره، سنتقلنا إلى الميزان الأخير؛ حيث لا تبقى الادعاءات معلقة بلا نتيجة، ولا تتساوى الاستجابة بالإعراض. هناك ينقسم المصير كما انقسم الموقف: قومٌ عرفوا ثم كفروا، فكانوا شر البرية، وقومٌ آمنوا وعملوا الصالحات، فكانوا خير البرية.

وعند حافة المصير سيظهر أن موقف الإنسان من البيئة لم يكن رأياً عابراً في حياته، بل كان القرار الذي صنع أبعده.

الفصل الخامس

شرُّ البرية: حين يقود رفض النور إلى ظلمة المصير

الآية السادسة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا^ج أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

بعد أن عرضت السورة البيّنة في صفائها، وكشفت التفرق الذي وقع بعد مجيئها، وردّت الدين إلى جوهره من عبادة وإخلاصٍ وصلاةٍ وزكاة، انتقلت إلى النتيجة الأخيرة؛ لأن الحق في القرآن ليس فكرةً معلقةً خارج المسؤولية، ولا موقف الإنسان منه رأياً ذهنياً ينتهي بانتهاء النقاش، بل هو اختيار يصنع مصيره. وما نزرعه في مساحة العمر القصيرة سنلقاه هناك حقيقةً كاملةً لا تقبل التعديل بعد انقضاء زمن الامتحان.

تبدأ الآية بأداة التوكيد: ﴿إِنَّ﴾، كأنها تقطع الطريق على كل وهم يريد أن يفرغ الحياة من الحساب، وتعلن أن للمواقف نهايات، وأن الله الذي أرسل البيّنة لم يترك الاستجابة لها والصد عنها سواء. فلو استوى من فتح قلبه للهدى بمن أغلقه، ومن أخلص لله بمن استكبر عليه، ومن حمل الحق ودفع

ثمنه بمن حاربه وحجب الناس عنه، لكان الوجود بلا ميزان، ولكانت القيم أصواتاً لا أثر لها خلف حدود الموت.

غير أن الله حق، وحكمه حق، ووعده ووعيده حق، والآخرة هي الموضع الذي تسترد فيه الأشياء أعجامها الحقيقية، بعدما بدت في الدنيا مشوشةً بموازن القوة والشهرة والمال. هناك لا يستطيع الباطل أن يحتمي بجمهوره، ولا الظالم أن يشتري روايةً جديدةً لجرائمه، ولا المتكبر أن يضع بينه وبين الحقيقة حرساً وأبواباً، فكل ما كان يحجب القلب يسقط، وتبقى النفس وحدها أمام ما اختارت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

الكفر بوصفه موقفاً من الحقيقة

الكفر في أصل معناه يحمل دلالة الستر والتغطية؛ فكأن الحقيقة حضرت، لكن الإنسان غطاها عن قلبه، أو ستر ما عرفه منها حتى لا تغير طريقه. وليس المقصود مجرد خطأ عارض في التفكير، ولا سؤال صادق يبحث صاحبه عن اليقين، ولا ضعف يعتري المؤمن ثم يعود؛ إنما هو رفض للحق الذي قامت به الحجة، وإصرار على الإعراض حتى يُتَمَّ العمر على ذلك.

ومن عدل الله أن أحكام الآخرة ليست موكولةً إلى أهواء البشر ولا إلى تعميماتهم المتعجلة؛ فالله وحده يعلم من بلغته الحجة على وجهها، ومن حيل بينه وبينها، ومن كان صادق البحث، ومن عرف فعاند، وما خفي في القلوب من الملابس والدوافع. نحن نؤمن بالحكم الذي قرره الوحي على الكفر، لكننا لا نفتحم مقام الله في الحكم التفصيلي على الأعيان بغير علم؛ فهو سبحانه أحكم الحاكمين، لا يظلم مثقال ذرة، ويعلم السر وأخفى.

والآية تتحدث عن الذين كفروا من الفريقين وماتوا على كفرهم، لا عن أبواب التوبة ما دامت الحياة باقية؛ فما دام الإنسان يتنفس فإن طريق الرجوع لم يُغلق، وقد يتحول المعاند إلى مؤمن، والبعيد إلى قريب، والخصم إلى حاملٍ للحق الذي كان يحاربه. كم من رجلٍ وقف أول أمره في الصف المقابل للرسالة، ثم مسّت البيّنة موضع الصدق فيه، فانقلبت طاقته كلها نصرَةً لما كان يصد عنه!

وهذا يمنع المؤمن من أن يتعامل مع الأحياء بوصفهم مصائرٍ مكتملة؛ فالإنسان مشروعٌ مفتوح ما دام في زمن الاختيار، ولا يعلم أحدٌ بأي حالٍ يختم الله له. قد يكون في قلب البعيد بذرةٌ تنتظر كلمة رحمة، وقد يكون في قلب المتقدم داءٌ يحتاج إلى خوفٍ ومجاهدة. فلا ينبغي أن يحول المؤمن

الوعيد إلى أداة للاستعلاء على الخلق، بل إلى باعٍ على دعوتهم والشفقة عليهم ومحاسبة نفسه.

إن من قرأ آية العذاب فشعر فقط بلذة النجاة المتهمة واحتقار الآخرين، لم يفقه أثرها التربوي كاملاً؛ فالوعيد ينبغي أن يرجّ قلبه، وأن يذكره بأن الثبات نعمة، وأن يسأل الله الهداية له ولغيره، وأن يعرف أن النجاة ليست وساماً عرقياً ولا امتيازاً موروثاً، وإنما فضلٌ من الله واستجابةٌ للحق وعملٌ صالح.

﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾

حين لا يغني الكتاب عن الاستجابة

تجمع الآية مرةً أخرى بين أهل الكتاب والمشرّكين، كما جمعهم الآية الأولى؛ لتقرر أن الانتساب التاريخي لا يبدل حقيقة الموقف من البيئة. فامتلاك أثرٍ من كتابٍ سابق لا يغني إذا رُفض الرسول الذي أمر الله باتباعه، كما أن الموروث الديني لا يصبح حجةً على الله، بل يصبح حجةً لصالح صاحبه أو عليه بمقدار ما قاده إلى الخضوع.

لقد كان بين الفريقين فرقٌ في المعرفة والتاريخ، لكنهما التقيا عند رفض الحق بعد بلوغه؛ وكأن السورة تزن البشر لا بأسمائهم، بل بموقفهم من الله.

فلا النسب إلى نبيٍّ سابقٍ يضمن النجاة مع تكذيب نبيٍّ لاحقٍ، ولا كثرة الطقوس تغني عن التوحيد، ولا الذاكرة المقدسة تعوض غياب الاستجابة الحاضرة.

إن الدين ليس متحفاً لحفظ آثار الوحي، بل عهدٌ حيٌّ بالطاعة. قد يحسن قومٌ تزيين صفحات تاريخهم، ويتغنون بأنبيائهم وصالحهم، لكن السؤال الذي يوجهه القرآن إليهم هو: ماذا تفعلون الآن بما تركه أولئك لكم؟ هل ورثتم عنهم صدق العبودية، أم اكتفيتم بأن ورثتم أسماءهم؟

ولا تختصر العبرة في أهل الكتاب السابقين؛ فالمسلم كذلك قد يحمل أشرف كتاب، وينتسب إلى خاتم الأنبياء ﷺ، لكنه لا ينبغي أن يجعل هذا الانتساب بديلاً عن الإيمان الصادق والعمل الصالح. شرف الأمة برسالتها لا يمنح كل منتسبٍ إليها حصانةً من التقصير، بل يضاعف مسؤوليته؛ فمن حُمِّلَ النور ثم أخفاه، أو تلاه ثم ناقضه في الأمانة والعدل، فقد أساء إلى نفسه وإلى الشهادة التي كُلف بها.

لا يعني هذا التسوية بين أصل الإيمان والكفر، ولا إهدار الفرق العقدي الذي تقرره السورة بوضوح، وإنما يعني أن المؤمن لا يملك أن يحول صحة انتسابه إلى رخصةٍ للغرور والمعصية. الإيمان الذي لا يثر خشيةً وعملاً يحتاج

صاحبه إلى مراجعة صدقه وكالهِ، وسيأتي وصف ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ مقتراً بالإيمان والعمل الصالح معاً، لا بمجرد الدعوى.

وحدة المعيار وعدل السماء

حين تضم الآية أهل الكتاب والمشرّكين في حكم يتصل بموقفهم من الرسالة، فإنها تهدم الطبقة الدينية التي تجعل بعض الأجناس أقرب إلى الله بذواتها. الله لا يجابي قوماً لأن لهم تاريخاً، ولا يظلم آخرين لأنهم لم يملكوا مكانةً بين الناس؛ المعيار هو الإيمان والاستجابة، والحكم له وحده بعلبه وعدله.

إن البشر يميلون إلى صناعة مناطق محصنة لهوياتهم: يرون أخطاء الآخرين كبيرةً، وأخطاء جماعتهم صغيرة، ويعاملون الحق كأنه ملكيةٌ تمنح أصحابها قيمةً ذاتية. لكن القرآن لا يسمح للهوية أن تقف فوق الميزان؛ فحين يكفر صاحب الكتاب لا ينقذه اسم الكتاب، وحين يؤمن الإنسان ويعمل صالحاً لا يضره فقره أو لونه أو نسبه.

السماء لا تقرأ الألقاب التي نقشها الناس على أبوابهم، بل تنظر إلى حقيقة القلوب والأعمال. وقد يكون إنسانٌ مشهوراً في الأرض بالفضل، لكنه عند

الله خفيفٌ لخواء قصده، وقد يكون مجهولاً لا تلتفت إليه العيون، لكنه يحمل قلباً يساوي في ميزان السماء مدناً من الضجيج.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾

حين يصير الباطن عالماً كاملاً

يأتي التعبير: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، ولا يقول فقط إن النار تمسهم؛ بل يجعلهم في داخلها، محاطين بها، وقد صارت موطناً للعذاب بعد أن رفضوا طريق النجاة. وهي نارٌ حقيقية من عالم الغيب أخبر الله بها، فلا يصح إفراغها من حقيقتها وتحويلها إلى رمزٍ نفسي محض، وإن كان للكفر والمعصية والكفر كذلك أثرٌ من الوحشة والظلمة يبدأ في الدنيا قبل ظهور الجزاء الكامل في الآخرة.

لقد اختاروا أن يغلقوا القلب عن النور، فأنتهى الطريق إلى النار؛ وكأن بين حقيقة الكفر وعاقبته مناسبة عميقة: فالقلب الذي عاش يحرق دلائل الفطرة، ويطفئ مصابيح الهداية، ويؤثر ظلمة الهوى، يلقي في الآخرة صورة المصير الذي اختاره. ليست النار حادثةً اعتباطيةً منفصلةً عن العمل، بل جزاءٌ بالحق، يكشف خطورة ما كان الإنسان يراه في الدنيا موقفاً فكرياً بسيطاً.

إننا نضع للكفر والمعصية أجماً صغيرة لأن آثارها الكاملة محجوبة عن حواسنا؛ نرى اللحظة ولا نرى الامتداد، ونرى اللذة ولا نرى الجرح الذي تتركه في القلب، ونرى قرار الإنسان في الدنيا ولا نرى صلته بمصيره الأبدي. لكن الوحي يفتح النافذة على النهاية كي نعرف خطورة البداية؛ فالنار لم تُذكر لتعذيب الخيال، وإنما لإنقاذ الإرادة قبل فوات زمن الإنقاذ.

ومن رحمة الله أنه أخبر بالنار قبل أن يدخلها أحدٌ ممن بلغه إنذارها؛ فالتحذير باب نجاة، والوعيد في الدنيا فرصة. حين ترى لافتةً تحذرك من هاوية، فليست قسوتها في أنها أرعبتك، بل رحمتها في أنها أوقفتك. ولو ترك الإنسان يسير نحو الهلاك في طمأنينةٍ كاذبةٍ دون إنذار، لكان ذلك أدعى للخوف.

إن المشكلة ليست في أن الخطاب القرآني يحدثنا عن العذاب، بل في أن الإنسان يريد أحياناً كوناً بلا نتائج؛ يريد حريةً لا تتبعها مسؤولية، وعمراً ينفقه كما يشاء ثم يطالب في النهاية بأن تتساوى الطرق كلها. لكن إلغاء الجزاء لا يصنع رحمةً، بل يهدم معنى العدل، ويجعل دم المظلوم ودمعه وتضحية الصديق واستكبار الطاغية أحداثاً تنتهي إلى فراغ واحد.

ومع وضوح الوعيد، لا يجوز أن تتحول آيات النار إلى لغة شماتةٍ بشرية. المؤمن لا يملك النار، ولا يوزع مفاتيحها على خصومه، ولا يستمد من ذكرها لذة الانتقام لنفسه. إنه يبلغ ما قال الله، ويخاف على نفسه، ويرجو الهداية للخلق، ويدرك أن الرحمة في الدعوة لا تعني إخفاء الحقيقة، كما أن بيان الحقيقة لا يبيح قسوة القلب.

كان الأنبياء أشد الناس يقيناً بالعذاب، ومع ذلك كانوا أشدهم حرصاً على نجاة أقوامهم؛ لأن العلم الحقيقي بالمصير لا ينتج شماتةً، بل ينتج شفقة. الذي يعرف معنى النار لا يتمنى دخول الناس فيها، بل يبذل ما يستطيع ليصرفهم عنها، ويزن عبارته حتى يبلغ الإنذار دون أن يجعل نفسه خصماً يحجبهم عن سماعه.

وقد يظن بعض الناس أن الرحمة تعني إسقاط الوعيد من الخطاب، لكن الرحمة التي تخفي الخطر ليست رحمةً كاملة. والطبيب الرحيم لا يقول للمريض إن مرضه يسير إذا كان قاتلاً، وإنما يخبره بصدقٍ ويضع يده في يده نحو العلاج. وكذلك الداعية: لا يملك أن يحذف من الوحي ما يزعج الذوق

المعاصر، ولا أن يعرض النار كأنها احتمالٌ شعري، لكنه يعرضها بقلبٍ يريد النجاة للسامع، لا بقلبٍ يتشفى منه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾

القرار المحدود وأثره الأبدي

تصل الآية إلى الكلمة التي ترتجف عندها الروح: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. ليست لحظةً تمر، ولا ألماً ينتهي بانتهاء دورةٍ من الزمن، وإنما خلودٌ في العذاب لمن مات على الكفر كما أخبر الله. وهنا قد يسأل العقل: كيف يرتبط عمرٌ محدود بجزءٍ غير محدود؟

والجواب يبدأ من فهم أن الكفر ليس عدداً من اللحظات يُقاس حساباً بمدة ارتكابه وحدها، بل هو موقفٌ مستقرٌ من الله يختم الإنسان عليه حياته، وتنتهي به إرادته في زمن الامتحان. لم يترك الكفر لأنه تاب منه، بل تركه الموت وهو متمسكٌ به، وانتهت فرصته لا اختياره. والله أعلم بما في القلوب، وأحكم في الحكم، ولا يسأل عن عدله من لا يملك من العلم إلا طرفاً يسيراً من المشهد.

إن جسامة الذنب لا تُقاس بطول الزمن الذي استغرقه فقط، بل بعظمة الحق المعتدى عليه وبطبيعة الإرادة التي قامت به؛ فقد تقع جريمةٌ في دقائق

وتترك أثراً لا ينتهي في حياة أجيال. والكفر بالله ليس هفوةً زمنيةً معزولة، بل نقضٌ لأصل الغاية التي خُلق الإنسان لها، ورفضٌ لمصدر وجوده ونعمته وهدايته بعد قيام الحجّة.

ومع ذلك، ينبغي أن يقف العقل بأدبٍ عند خبر الله؛ فنحن لا نحيط بحقيقة الآخرة ولا بحكمة القضاء كلها، لكننا نعلم أصلاً لا يتزلزل: أن الله لا يظلم أحداً. فإذا أخبر بالخلود علمنا أنه عدل، وإن قصرت عقولنا عن الإحاطة بكل وجوه عدله؛ لأن قصور فهم المحدود لا يعني قصور حكمة المطلق.

وما دام الإنسان حيّاً، فإن كلمة ﴿خَالِدِينَ﴾ لا ينبغي أن تدفعه إلى القنوط، بل إلى المسارعة؛ إذ لا خلود في النار لمن تاب إلى الله توبةً صادقة قبل الموت، وآمن وأصلح. مهما طال ليل البعد، تستطيع لحظة صدقٍ أن تفتح باباً إلى الفجر؛ ومهما تراكت الخطايا، فإن رحمة الله أوسع لمن عاد إليه. الخطر ليس في أن يكون للإنسان ماضٍ مظلم، بل في أن يجعل من ماضيه قدراً يرفض الخروج منه.

وهم التأجيل

أحد أخطر حجب الإنسان أنه يعرف الحقيقة، لكنه يتعامل مع الزمن كأنه ملكٌ مضمون؛ يؤجل التوبة إلى وقتٍ يظنه أكثر صفاء، ويؤجل الصلاة

حتى تستقيم ظروفه، ويؤجل رد المظالم حتى يتسع ماله، ويؤجل المصالحة مع الله حتى يشبع من الطريق البعيد. لكنه لا يدري أن اللحظة التي يؤجل إليها قد لا تأتي، وأن القلب نفسه قد لا يبقى محتفظاً بقدرته الحالية على الرجوع.

فالقلوب تتشكل بالتكرار؛ كل رفضٍ يجعل الرفض التالي أسهل، وكل معصيةٍ لا تتبعها توبة تحفر لنفسها مجرى، حتى يصبح ما كان يؤلم الضمير عادةً لا يشعر بها. إن التأجيل ليس وقوفاً محايداً، بل سيرٌ بطيء في الاتجاه الخطأ؛ والإنسان الذي يقول: سأعود غداً، لا يبقى اليوم في مكانه، وإنما يبتعد خطوة إضافية قد تجعل العودة غداً أشق.

من هنا كانت آية المصير دعوةً إلى اللحظة الحاضرة: ما دامت البينة أمامك، فلا تجعل العمر حجاباً جديداً. أنت لا تملك من زمانك إلا الآن، وكل تصورٍ للمستقبل لا يستند إلى وعدٍ من الله هو أمنية. التوبة لا تحتاج إلى أن تصبح شخصاً آخر أولاً؛ بل تبدأ حين تعترف أنت، في هذه الهيئة المتعبة الناقصة، بأنك تحتاج إلى الله.

﴿أُولَٰئِكَ هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

سقوط الإنسان من مقام التكريم

تختتم الآية بحكم بالغ الشدة: ﴿أُولَٰئِكَ هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾. و«البرية» تشمل الخلق؛ فيكون الذين كفروا بعد قيام الحجة شرهم بما اختاروه من محود، لا لأن الله خلقهم أول الأمر بلا قابلية للهدى، ولا بسبب جنسٍ أو لونٍ أو قومية، وإنما لأنهم أهدروا ما منحهم الله من عقلٍ وفطرةٍ وفرصة، واستخدموا إرادتهم في مقاومة النور.

إن الإنسان مكرمٌ بأصل خلقه، لكنه ليس حاملاً لصكٍ تفوقٍ مطلقٍ مهما فعل؛ فقد يرتفع بالإيمان والعمل حتى يكون من خير البرية، وقد يسقط بالكفر والعناد حتى يكون من شرها. هذه هي خطورة الحرية: أنها تفتح له أبواب الارتقاء، كما تجعله مسؤولاً عن السقوط. الكرامة الإنسانية في أصل الخلقة لا تعني أن الأفعال كلها متساوية، ولا أن من حوّل طاقاته إلى فسادٍ يساوي من عمرّ بها الأرض على الحق.

ولمَ كان الكافر المعاند شرّ البرية؟ لأنه أفسد أكرم ما أعطي: قدرة المعرفة والاختيار. فالحيوان يتحرك وفق ما جُبِلَ عليه، ولا تُعرض عليه البيئة ليختار موقفه منها؛ أما الإنسان فقد مُنح عقلاً يسمع به خطاب الحق، وقبلًا يعرف به، وإرادةً تستجيب، فإذا جعل هذه النعم أدواتٍ للحدود، فقد انقلب على الغاية التي رُفعت بها منزلته.

وقد يكون الإنسان بارعاً في العلوم، عظيم القدرة على البناء والاختراع، لكنه إذا قطع صلته بالله لم تمنحه مهارته وحدها القيمة النهائية عند الله. المعرفة التقنية تجيب عن سؤال: كيف نصنع؟ لكنها لا تجيب وحدها عن سؤال: لماذا نصنع، ولمن، وبأي حق، وإلى أي غاية؟ وقد يمتلك المرء أعظم الأدوات ثم يستخدمها في تدمير الإنسان؛ فتتسع قدرته بينما يضيق ضميره، ويصبح تقدمه المادي وسيلةً أسرع لانهياره الأخلاقي.

الحضارة لا تُقاس بما ترتفع به مبانيها وحدها، بل بما ترتفع إليه رؤيتها للإنسان؛ ولا بما تصنعه من أدوات، بل بما تصنعه الأدوات في روح مستخدميها. إذا حررت الآلة اليد وأبقت القلب عبداً للشهوة، فقد تطورت الوسيلة وضاعت الوجهة. وإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى أقاصي الفضاء ولم يعرف لماذا هو في الأرض، فقد اتسعت المسافة التي يقطعها وبقي السؤال المركزي بلا جواب.

الشر الذي يبدأ برفض المرجع

حين يرفض الإنسان الله، لا يعني ذلك أنه سيعيش بلا مرجع؛ بل سيقسم في مكان المرجع شيئاً آخر: ذاته، أو دولته، أو عرقه، أو طبقته، أو شهوته. وما إن تصبح هذه الأشياء مطلقةً حتى تُذبح عندها بقية القيم. الذي يجعل القوة

إلهاً يرى الحق فيما تستطيع القوة فرضه، والذي يجعل اللذة غايةً يعيد تعريف الإنسان على أنه جسدٌ للاستهلاك، والذي يجعل القومية معبوده يبرر الظلم إذا خدم قومه.

ولهذا فإن التوحيد ليس مسألةً منعزلةً عن الأخلاق؛ إنه الأساس الذي يمنع أي قوةٍ بشريةٍ من أن تتحول إلى مطلق. إذا كان الله أكبر، فالحاكم ليس أكبر، والجماعة ليست أكبر، والمال ليس أكبر، والذات ليست أكبر. وكل شيءٍ سوى الله محدود، يخضع للحق ولا يصنعه من هواه.

أما الكفر بعد البينة فيقطع هذا الحبل، ويترك الإنسان داخل عالمٍ من الموازين المتصارعة. وقد يحافظ بعض غير المؤمنين على فضائل دنيوية بما بقي في الفطرة من خير وبما توارثته المجتمعات من قيم، ولا ننكر واقع أعمالهم النافعة ولا نبخس أحداً حقه الدنيوي؛ لكن الآية تتحدث عن الميزان النهائي عند الله، حيث الأصل الأعظم هو موقف العبد من خالقه بعد قيام الحجة عليه.

لا مجال للكبر باسم النجاة

من المفارقات المؤلمة أن يقرأ المؤمن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ فيمتلئ كبراً، مع أن الكبر نفسه من أعظم المحجب عن الحق. لم تُعطَ هذه الآية

للمؤمن كي يبني لنفسه عرشاً فوق الناس، بل كي يعرف فداحة الكفر، ويحمد الله على الهداية، ويزداد تواضعاً وخوفاً وحرصاً على دعوة الخلق.

إنك لم تخلق النور الذي اهديت به، ولم تكتب الوحي الذي بلغك، ولم تفتح قلبك مستقلاً عن توفيق الله؛ فكيف تجعل الهداية مادةً للتعالي؟ حقها أن تزيدك شكراً لا غروراً، ورحمةً لا ازدراءً، واستقامةً لا دعوى. ومن شكر النعمة أن تسعى في إيصالها بحكمةٍ إلى غيرك، لا أن تقيم منها سوراً تتباهى بأنك داخله.

وقد يقع الإنسان في شرٍ عظيم وهو يظن نفسه حارساً للخير، إذا تكلم عن المخالفين بلا عدل، أو ظلمهم في حقوق الدنيا، أو افترى عليهم بحجة الاختلاف في الدين. العقيدة الصحيحة لا تبيح الكذب، والبراءة من الباطل لا تسقط واجب الإنصاف؛ فالله الذي أمر بالإيمان هو الذي أمر بالعدل، ولا يُنصر الحق بمعضية الحق.

إن المؤمن يجمع بين وضوح الموقف العقدي وحسن المعاملة، فلا يذيب الفوارق طلباً للقبول، ولا يحولها إلى مبررٍ للعدوان. يقول ما يعتقد به بصدق، ويحفظ للإنسان دمه وماله وكرامته وحقه في العدل، ويرجوه الهداية. قوة

اليقين لا تحتاج إلى فظاظه؛ لأن الحقيقة الواثقة لا ترتعد من اللطف، والرحمة الصادقة لا تستلزم تحريف الحقيقة.

المصير بوصفه كشفًا لا مفاجأة

في الآخرة لا يصير الإنسان شيئاً لا صلة له بما كان، بل ينكشف ما كان يبنيه في الخفاء. كان الإيمان بذرةً صارت جنة، وكان الكفر ظلمةً صارت ناراً، وكانت الطاعات الصغيرة خطوطاً في طريقٍ انتهى إلى الرضوان، وكانت الاختيارات المتكررة درجاتٍ في طريق الانفصال عن الله. الموت لا يصنع الوجهة، بل يوقف القدرة على تغييرها ويكشف نهايتها.

ولهذا فإن كل يوم ليس صفحةً تُطوى بلا أثر، بل لبنَةٌ في المصير. نحن نصنع عاداتنا، ثم تصنع عاداتنا ملامح قلوبنا، ثم نلقى الله بهذه القلوب. من اعتاد الصدق صار الصدق أقرب إليه حين تشد الفتنة، ومن اعتاد التبرير صار قادراً على خداع نفسه في أعظم القضايا. والمصائر الكبرى لا تولد غالباً في لحظة منفصلة؛ بل تتكون من اختيارات تبدو صغيرة حتى يأتي آخر العمر فيجد الإنسان نفسه في الطريق الذي ظل يبنيه.

إن الآية السادسة ليست مجرد خبرٍ عن فئةٍ غابرة؛ إنها جرسٌ يهز وهم الحيادة. لا يستطيع الإنسان أن يقف من البيّنة بلا موقف؛ فالإعراض

موقف، والتأجيل موقف، والتسليم موقف. وحتى الصمت الداخلي أمام الحق إذا كان هروباً منه يتحول مع الزمن إلى اختيار.

بين شر البرية وخير البرية

لو انتهت السورة عند هذه الآية لظل القلب واقفاً أمام مشهد النار، لكن القرآن يفتح في الآية التالية باب الرجاء، ويضع الصورة المقابلة مباشرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. كأن السورة لا تريد أن تترك الإنسان أسير الخوف، بل تحوله إلى حركة نحو النجاة.

إن المقابلة بين الآيتين ليست زينةً بيانية، بل خريطة قرار: هنا طريق الكفر الذي انتهى إلى النار، وهناك طريق الإيمان والعمل الذي ينتهي إلى الجنة والرضوان. والمسافة بين المصيرين تبدأ الآن، في الموضع الذي يقول فيه القلب للبيئة: أقبلت، وفي اللحظة التي يترجم فيها الإيمان نفسه عملاً.

لن يكون خير البرية أصحاب الأسماء اللامعة وحدهم، ولا الذين امتلكوا المال والسلطان، ولا الذين أحسنوا عرض صورهم أمام الناس؛ إنهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. اثنتان تختصران طريق النجاة: حقيقة تسكن القلب، وحياة تصدقها.

وبعد ظلمة الوعيد، ستشرق الآيتان الأخيرتان بأوسع مشاهد السورة
طمأنينةً: جنات عدن، وأنهار تجري، وخلود لا يهدده فناء، ثم جائزة أعظم
من الجنة نفسها: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.
هناك تبلغ رحلة البينة غايتها؛ فالقلب الذي رضي بالله في الأرض، يلقاه
الله في الآخرة برضوانه.

الفصل السادس

خير البرية: حين يثمر الإيمان حياةً صالحة

الآية السابعة

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

بعد أن عرضت السورة صورة الذين كفروا بالبينّة وانتهى بهم الطريق إلى النار، فتحت الجهة الأخرى من المشهد، لكيلا يظل الإنسان واقفًا أمام الوعيد من غير أن يرى طريق النجاة. إن القرآن لا يخوّف ليشلّ الإرادة، وإنما يخوّف ليوقظها، ولا يذكر النار ليقذف القلب في اليأس، بل ليجعله أكثر جدية في اختيار الطريق الذي ينتهي إلى الرضوان.

وبين ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ و﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ تقف حياة الإنسان كلها؛ فالسمااء لا تنظر إلى البشر ككلمة رمادية تتساوى فيها المواقف، ولا تجعل الإيمان والكفر، والعدل والظلم، والإصلاح والإفساد، طرقًا مختلفةً إلى نهايةٍ واحدة. لكل طريق حقيقة، ولكل اختيار أثره، ولكل بذرة ثمرتها.

غير أن القرآن حين وصف خير البرية لم يذكر جنسًا ولا لونًا ولا قبيلةً ولا طبقةً ولا ثروةً ولا شهرةً؛ بل وضع معيارًا متاحًا لكل من صدق: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. إن أبواب الرفعة عند الله لا يحرسها النسب، ولا تفتحها

الألقاب، ولا تحتاج إلى موقع اجتماعي يمنحه الناس؛ يستطيع العبد المجهول في الأرض أن يكون من خير البرية، إذا عرفه الله بصدق الإيمان وصالح العمل.

وهنا تتهاوى المقاييس التي يزن بها العالم أبناءه؛ فقد يرى الناس الخير في الأكثر قوة أو مالا أو حضوراً، بينما يراه الله في القلب الذي آمن واليد التي أصلحت. وقد يعبر إنساناً على الأرض فلا يذكر اسمه في خبر، ولا تحمل الشوارع صورته، لكنه يكون عند الله من خير خلقه؛ لأن حياته الصغيرة في أعين الناس كانت عظيمة في ميزان الصدق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

الإيمان الذي يعيد بناء الوجود

الإيمان ليس توقيعاً ذهنياً على مجموعة من الحقائق فحسب، وإن كان التصديق أصلاً فيه؛ إنه انقلابٌ في مركز الرؤية، تنتقل به النفس من العيش في كونٍ صامت إلى العيش في ملك الله، ومن رؤية الحياة حادثةً عابرة إلى رؤيتها أمانةً وابتلاء، ومن النظر إلى الموت بوصفه نهايةً إلى معرفته بوصفه عبوراً إلى دار الجزاء.

حين يؤمن الإنسان بالله يتغير معنى الأشياء من حوله دون أن تتغير صورها؛ فالشمس هي الشمس، لكنها تصبح آية، والرزق هو الرزق، لكنه يصبح نعمة واختباراً، والإنسان هو الإنسان، لكنه يصبح مخلوقاً مكرماً لا أداة للاستغلال، والموت هو الموت، لكنه يصبح موعداً لا عبثاً. الإيمان لا يضيف معلومةً إلى العالم، بل يمنح العالم معناه.

إنه يعيد ترتيب العلاقة بالقوة؛ فلا يعود المؤمن يرى نفسه وحيداً أمام طغيان البشر، لأنه يعرف أن وراء المشهد رباً لا يعجزه شيء. ويعيد ترتيب العلاقة بالخسارة؛ فلا يصبح فقدان الأشياء إعلاناً بانتهاء الحياة، لأن ما عند الله أبقي. ويعيد ترتيب العلاقة بالنجاح؛ فلا يظن أن النعمة شهادة على استحقاقه الذاتي، بل يراها فضلاً يحتاج إلى شكر.

والإيمان ليس حالةً شعوريةً ثابتة الحرارة؛ قد يصفو القلب حيناً وثقله الغفلة حيناً، لكن المؤمن يجدد صلته بالله، ويعود كلما ابتعد، ولا يسمح لعوارض الطريق أن تقنعه بأنه فقد الطريق. إن من طبيعة الرحلة أن يتعب السائر، لكن الفرق بينه وبين الضائع أن للسائر قبلةً يعود إليها.

قد يجد الإنسان في بعض لحظاته نوراً يغمر قلبه، ثم يدخل عليه ثقل الدنيا، فلا ينبغي أن يظن أن الإيمان الصادق يعني ألا تمر به غيمة؛ فالسما

لا تفقد شمسها حين تغطيها السحب. إنما الخطر أن يرضى بالقيمة مقاماً، وأن يتوقف عن طلب النور. الإيمان حياة، والحياة تحتاج إلى غذاء: قرآنٌ يُتدبر، وصلاةٌ تُقام، وذكرٌ يرد الغائب، وصحبةٌ تذكر بالله، وعملٌ صالح يثبت المعنى في الواقع.

الإيمان ليس ادعاءً للطمأنينة الدائمة

قد يمر المؤمن بالخوف والحزن والقلق، ولا ينقض ذلك أصل إيمانه؛ فالأنبياء أنفسهم عرفوا الحزن والألم والانتظار. الإيمان لا يحول الإنسان إلى حجرٍ لا يتأثر، بل يمنحه معنىً يعبر به تأثره، ويداً باطنةً تمسكه حين تهتز الأرض من حوله. المؤمن يبكي، لكنه لا يرى دموعه خارج علم الله؛ ويتعب، لكنه لا يعتقد أن تعبهُ بلا ثمر؛ ويخاف، لكنه يعرف إلى من يهرب بخوفه.

ليس الفرق دائماً في وقوع الألم، بل في تفسيره؛ غير المؤمن قد يراه صدعاً في كونٍ بلا غاية، أما المؤمن فيراه جزءاً من امتحانٍ لا يحيط بحكمته كلها، لكنه يثق بمن يديره. وهذه الثقة لا تلغي السؤال البشري، بل تمنعه أن يتحول إلى قطيعةٍ مع الله. يسأل المؤمن وهو في حضرة العبودية، لا في مقام الاتهام، ويطلب الفهم دون أن يشترط إحاطته بالحكمة كي يطمئن إلى حكمة ربه.

والإيمان لا يعني تعطيل الأسباب؛ فالثقة بالله لا تمنع الدواء، والتوكل لا يلغي التخطيط، والرضا لا يعني الاستسلام للظلم. المؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور، لكنه لا يؤلّها؛ يبذل ما يستطيع ثم يعرف أن النتيجة ليست ملكاً له. فإذا نجح شكر ولم يتضخم، وإذا تعثر راجع وسعى ولم ينهدم؛ لأنه لم يكن متعلقاً بالسبب وحده.

الإيمان فعلٌ تواضع

في أصل الإيمان انحناءٌ عميق للروح؛ فالإنسان يعترف بأنه مخلوق لا خالق، ومملوك لا مالكٌ مطلق، ومحتاج لا مستغنٍ، ومحدود العلم لا يحيط بكل شيء. وهذه الاعترافات ليست إهانةً لكرامته، بل تحريراً له من عبء الألوهية المتهمة؛ فما أشقى الإنسان حين يطالب نفسه أن تتحكم في العالم كله، وأن تفهم كل سر، وأن تضمن كل نتيجة!

الإيمان يضعه في حجمه الحقيقي: عبدٌ صغير في هذا الكون، لكنه ليس مهملاً؛ ضعيفٌ في ذاته، لكنه موصولٌ بالقوي؛ عمره قصير، لكنه قادرٌ أن يزرع فيه ما يمتد إلى الأبد. إن التواضع لله لا يصغر الإنسان، بل ينقذه من الصغر الذي يصنعه الكبر؛ لأن المتكبر أسيرٌ لصورةٍ ضخمة عن نفسه، يظل

يدافع عنها حتى يفقد الحقيقة، أما المؤمن فيستطيع أن يعترف ويعتذر ويتعلم ويعود.

ومن علامات الإيمان أن يصير الإنسان أيسر رجوعاً إلى الحق؛ لأن الذي يؤمن بالله لا يحتاج أن يجعل ذاته معصومة. يكفيه أن يكون عبداً يخطئ ويتوب، فلا يرى الاعتذار سقوطاً من مقام متوهم، ولا يرى تصحيح الرأي هزيمة. إن من يرفض الاعتراف بخطئه يحجب صورة نفسه على حساب نفسه الحقيقية، أما المؤمن فيعرف أن الله يحب التوابين، فيجعل من عثرته باباً إلى تواضع جديد.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

حين يغادر الإيمان أعماق القلب إلى وجه الحياة لم تكتف الآية بقولها: ﴿آمَنُوا﴾، بل قرنت الإيمان بالعمل الصالح؛ لأن ما يستقر في القلب لا بد أن تظهر آثاره في الحياة. العمل ليس شيئاً زائداً لا صلة له بالإيمان، بل هو ثمرته وشاهده، كما أن الشجرة الحية تُعرف بما يظهر عليها من ورقٍ وثمر.

ليس المقصود أن المؤمن لا يقع في تقصير، فالإنسان يضعف ويذنب، وإنما المقصود أن يكون الاتجاه العام لحياته نحو الطاعة والإصلاح، وأن يعود

إذا زل، وآلا يحول خطأه إلى مبدأ يدافع عنه. الفرق عظيم بين من تغلبه نفسه ثم يندم، ومن يعيد تعريف المعصية حتى لا يضطر إلى التوبة؛ الأول جريحٌ يبحث عن الشفاء، والثاني يحاول إقناع نفسه بأن الجرح صحة.

والصالحات جمعٌ واسع يفتح أبواب الخير كلها؛ تشمل العبادة التي تصلح علاقة الإنسان بربه، والأخلاق التي تصلح علاقته بالناس، والأعمال التي تصلح الأرض. الصلاة من الصالحات، كما أن إغاثة الملهوف، وإتقان العمل، وتعليم الجاهل، وإصلاح ذات البين، وكف الأذى، والعدل بين المختلفين، ورعاية الضعيف، وحماية الأمانة، وكتابة الكلمة التي تهدي ولا تضلل — كلها من وجوه الصلاح إذا استقامت على أمر الله وصح قصدها.

إن الإسلام لا يحصر الصلاح في زاويةٍ معزولة من الحياة؛ فالطريق الذي تُزال منه الأذية موضعٌ للعمل الصالح، والعقل الذي يُنقذ من الجهل موضع، والأسرة التي تُبنى على الرحمة موضع، والمال الذي يُطهر من الحرام موضع، والسلطة التي تُرد إلى العدل موضع. كل مساحةٍ دخلها الفساد تنتظر صالحاً يعيد إليها شيئاً من ميزانها.

ما الصلاح؟

الصالح هو موافقة العمل لمراد الله، وأن يكون في ذاته مشروعاً، وفي قصده خالصاً، وفي طريقته عادلةً. فلا يكفي أن تكون الغاية جميلة إذا كانت الوسيلة محرمة، ولا يكفي أن يبدو الفعل نافعاً إذا بُني على ظلم أو خيانة. إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، والدين القيم لا يطلب من الإنسان أن ينصر الحق بالباطل؛ لأن الباطل الذي يُستعمل وسيلةً يترك شيئاً من طبيعته في النتيجة. قد يزعم المرء أنه يكذب لمصلحة الدعوة، أو يظلم لحماية الجماعة، أو يهدر كرامة إنسانٍ دفاعاً عن قيمة، لكنه بذلك يطلب من المعصية أن تخدم الطاعة. والحقيقة لا تحتاج إلى الكذب ليحميها، والعدل لا ينتصر بالظلم، والدين لا يعزّ بانتهاك حدوده. ربما تحقق الوسيلة الفاسدة مكسباً عاجلاً، لكنها تزرع في قلب المشروع بذرة انهياره.

والعمل الصالح لا يقاس بالنتائج المادية وحدها؛ فالنتيجة ليست كلها في يد الإنسان. قد يجتهد في إصلاح ولا يراه يكتمل، أو يدعو فلا يستجيب له من يرجو، أو يبذر معرفةً ولا يشهد حصاها، لكنه يؤجر على صدقه وبذله فيما استطاع. ليست هذه دعوةً إلى إهمال الكفاءة؛ فإتقان الوسائل من الأمانة، وإنما هي تحريرٌ من عبادة النتيجة بعد است فراغ الجهد.

إن نوحاً عليه السلام دعا قومه زمناً طويلاً، ولم تكن قلة المستجيبين دليلاً على نقص مقامه؛ لأن قيمة النبي لا تُقاس بعدد من صفقوا له، بل بوفائه لما كُلف به. وقد يغرس إنسان شجرةً يستظل بها جيلٌ لم يره، ويكتب كلمةً تبقى ساكنةً في كتابِ سنواتٍ ثم تقع في قلبٍ مستعدٍ فتغير حياته. العمل الصالح لا يضيع لأن أثره لم يظهر فوراً؛ فالله يحفظ البذور التي ينسى الناس مواضعها.

الصالحات الصغيرة التي لا يراها التاريخ

يميل البشر إلى ربط العظمة بالأعمال الصاخبة، لكن كثيراً من صلاح العالم يحمله مجهولون لا يكتب التاريخ أسماءهم: أمٌ تصبر على تربية أبنائها في صمت، وأبٌ يرفض المال الحرام رغم ضيق العيش، ومعلمٌ يفتح نافذة المعرفة لطفل، وإنسانٌ يكتُم سرّاً أوّثن عليه، وجارٌ يحمل عن جاره بعض كربه، وموظفٌ يقاوم فساداً صغيراً كان يمكن أن يمر بلا مساءلة.

هذه الأعمال لا تغير عناوين الأخبار، لكنها تغير بنية العالم من الداخل؛ لأن المجتمع لا يقوم فقط على القرارات الكبرى، بل على ملايين الأمانات الصغيرة. وحين تنهار هذه الأمانات يصبح القانون عاجزاً عن مراقبة كل زاوية، ويبدأ الفساد من المواضع التي ظن الناس أنها لا تستحق الانتباه.

قد تكون من خير البرية وأنت تصلح أمراً لا يعلم به أحد، لأن الله لا يحتاج إلى شهرة الفعل كي يراه. وقد تسبق بعملٍ صغيرٍ نقيّ أناساً ملؤوا الدنيا حديثاً عن إنجازاتهم؛ فالميزان الإلهي يلتقط حقائق لا تظهر في الصور: مقدار المجاهدة، وصدق النية، وحجم التضحية نسبةً إلى قدرة صاحبها.

درهم الغني ودرهم الفقير متساويان في الرقم، لكنهما قد لا يتساويان في الميزان؛ لأن أحدهما طرفٌ يسيرٌ من فائض، والآخر قطعةٌ من حاجة. وابتسامة المعافي ليست كابتسامة الحزين الذي يحاول أن يخفف عن غيره وهو مثقلٌ بنفسه. الله لا يرى ظاهر العمل وحده، بل يرى الطريق الباطن الذي قطعه القلب حتى وصل إليه.

بين الإصلاح والإصلاح

الصالحات لا تجعل المؤمن صالحاً في نفسه فحسب، بل تدفعه إلى الإصلاح بقدر علمه وقدرته؛ لأن الخير إذا امتلأ به القلب فاض على محيطه. غير أن الإصلاح يحتاج إلى بصيرة؛ فقد يريد الإنسان الخير فيفسد بعجلته، أو يواجه خطأً صغيراً بطريقةٍ تفتح باباً لخطأ أكبر، أو ينصح بفظاظةٍ تجعل المخطئ أكثر التصاقاً بخطئه.

ليست النية الحسنة وحدها كافيةً في الأعمال المتعدية إلى الناس، بل لا بد من علمٍ وحكمةٍ ومعرفةٍ بالآلات. الطبيب لا يكفي أن يريد شفاء المريض؛ يجب أن يعرف مقدار الدواء وموضعه، وكذلك المصلح يحتاج أن يفهم طبيعة النفوس والظروف، وأن يفرق بين الحزم الذي يحمي الحق والقسوة التي تشفي غضبه الشخصي.

وقد يبدأ الإصلاح من مساحةٍ قريبة لا يلتفت إليها صاحب المشروعات الكبرى: من لسانه، وبيته، وموعده، ودينه، وطريقته في الاختلاف. ما أسهل أن يحمل المرء همّ العالم كله، بينما يترك الفوضى في دائرة مسؤوليته المباشرة! إن صدق الرغبة في إصلاح الأمة يُختبر أولاً في الموضع الذي يملك الإنسان تغييره، لا في المواضع البعيدة التي يكتفي بالحديث عنها.

ليس المطلوب أن يصغر طموحه، بل أن يجعل خطواته متصلةً بطموحه؛ فالحاضرات الكبرى لا تنهض بالشعارات وحدها، وإنما بتراكم الصلاح في العمل اليومي: معلومةٍ دقيقة، ووعده يُوفى، ووقتٌ يُحترم، ومالٌ عام يُصان، واختصاصٌ يُتقن. إن المعنى الروحي للدين لا ينفصل عن هذا العمران؛ فالذي يعبد الله بإتقان مسؤوليته يبني في الأرض أثراً من آثار العبودية.

العمل الصالح ومقاومة الاستعراض

في زمنٍ صارت فيه الصورة تسبق الفعل، يواجه العمل الصالح امتحاناً دقيقاً: هل يُفعل الخير لأنه خير، أم لأنه قابلٌ للعرض؟ قد يتسلل التصوير إلى اللحظة التي كان ينبغي أن تبقى بين المعطي والمحتاج، وتتحول حاجة الضعيف إلى خلفيةٍ لبناء صورة المحسن. وهنا قد يصل النفع المادي، لكن شيئاً من كرامة الإنسان يُجرح، وشيئاً من إخلاص الفاعل يتعرض للخطر.

ليس كل إظهارٍ للعمل رياءً؛ فقد تكون فيه قدوةٌ وتشجيعٌ وشفافيةٌ مطلوبة، والعبرة بالمقصد والحكمة. لكن المؤمن يراقب قلبه: هل كان سيفعل الخير لو لم يعرف به أحد؟ هل زاد حماسه لأن الكاميرا حضرت؟ هل يحفظ للمحتاج كرامته، أم يستعمل ضعفه ليقوى اسمه؟

إن أخفى الناس عمله ثم أحب أن يُعرف بإخفائه، فقد دخلت النفس من بابٍ آخر؛ ولذلك لا يُشفى القلب بالمظاهر وحدها، بل بصدق اللجوء إلى الله. المخلص لا يدعي أنه نجا من الرياء، وإنما يخافه ويجاهد ويستغفر، ويطلب من الله أن يجعل سريره خيراً من علانيته.

الصالحات في زمن الانكسار

قد يشعر الإنسان المثقل بالحزن أو المرض أو الفقد أنه صار عاجزاً عن العمل الصالح؛ لأنه يقيس الصلاح بالقدرة الكبيرة والحركة الظاهرة. لكن أبواب الخير تتسع لحاله: صبره عمل، واستعانتة بالله عمل، وكفّه لسانه عن التسخط عمل، ودعاؤه عمل، وكلمته اللطيفة مع ثقل روحه عمل. وربما كان جهاده ليقوم بواجب صغير في يومٍ شديد أثقل في الميزان من أعمالٍ كثيرة يؤديها المعافى في سهولة.

إن الله لا يطالب المنكسر بطاقة غيره، بل ينظر إلى ما بذله من داخل ضعفه. وقد تصبح مقاومة اليأس عملاً صالحاً؛ أن يرفض الإنسان أن يسلم قلبه للظلمة، وأن يفتح نافذةً صغيرةً نحو الله كلما أطبق عليه الحزن. ليس مطلوباً منه أن يمثل القوة، بل أن يصدق في افتقاره؛ فالعبودية ليست عرضاً للتماسك الدائم، وإنما عودةً إلى الله في القوة والانكسار معاً.

وقد يكون الانكسار نفسه باباً لصالح لم يكن ممكناً في زمن القوة؛ إذ يسقط عن الإنسان شيءٌ من غروره، ويشعر بالآلام الناس التي كان يمر بها من بعيد، ويصبح أكثر رقةً وأقل إصداراً للأحكام. ليست المصيبة صالحة بذاتها

على كل حال، لكن المؤمن يستطيع بعون الله أن يستخرج منها معنى صالحاً، فلا يترك الألم يمر في روحه دون أن يعلمه شيئاً من الرحمة.

﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

العظمة التي لا تحتاج إلى منصة

اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ يرفع شأن المؤمنين العاملين، ثم يأتي ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ليؤكد الحكم: هؤلاء هم خير البرية. لم يبلغوا هذا المقام بقوة أجسادهم، ولا بقدرتهم على إخضاع الآخرين، بل لأنهم عرفوا الله وأصلحو الحياة بما استطاعوا. إنها عظمة أخلاقية إيمانية، لا عظمة استيلاء واستعراض.

إن العالم يصف «الأعظم» عادةً بمن وسَّع حدود دولته، أو راكم ثروته، أو فرض اسمه على عصره، لكن القرآن يعيد تعريف العظمة: قد يكون أعظم الناس من انتصر على شهوة لم يعلم بها أحد، أو حفظ حقاً استطاع سلبه، أو عفا حين قدر، أو ثبت على الإيمان حين كان الثبات مكلفاً. السيطرة على الذات في ميزان الله قد تكون أشرف من السيطرة على مدن؛ لأن الذي يملك المدن ولا يملك غضبه أو طمعه عبدٌ على عرش.

و«خير البرية» وصف لا ينبغي أن يتحول إلى دعوى جماعية جوفاء؛ فالآية لم تقل إن كل من حمل اسم الإيمان نال تمام هذا المقام دون عمل، بل ربطته بشرطين واضحين: الإيمان والعمل الصالح. فمن أراد شرف الوصف فليسأل نفسه عن حقيقته فيه، بدل أن يكتفي باستعماله ضد غيره.

والخيرية لا تعني العصمة؛ فأهل الإيمان يتفاوتون، ويخطئون ويتوبون، لكن مركزهم هو التسليم لله، ومساوهم هو الصلاح. قد يسقط أحدهم في الطريق ثم ينهض، ولا يخرج منه التعثر العارض من أصل الاتجاه ما دام صادق الرجوع. أما الذي يحول الانتساب إلى حصانة من المحاسبة، فقد جعل الاسم حجاباً عن مقتضاه.

الخيرية تكليف قبل أن تكون تشریفاً

إذا علم المؤمن أنه ينتسب إلى أمة كُلفت بالشهادة على الناس، فلا ينبغي أن يفهم الخيرية بوصفها راحة في مدح الذات، بل مسؤولية في حمل الرحمة والعدل. خير الناس أنفعهم للناس فيما يرضي الله، وأقربهم إلى الحق، وأبعدهم عن ظلم الخلق. وكلما ارتفع الادعاء وجب أن يرتفع مستوى الوفاء. لا تكون الأمة خيرةً وهي تستهلك تاريخها دون أن تنتج عدلاً أو معرفةً أو رحمة؛ ولا يكفي أن تتحدث عن نور كتابها إذا تركت أبناءها للجهل، أو رفعت

شعار الأمانة وهي تهدر الحقوق، أو مجدت الإنسان في خطابها وأذلته في مؤسساتها. إن شهادة الدين تحتاج إلى واقع يرى فيه الناس أثره، وإلا بقيت الكلمات صحيحة في ذاتها محجوبة بسوء تمثيل أصحابها.

والخير لا يعني أن تذوب الأمة في مقاييس غيرها، بل أن تقدم من داخل إيمانها نموذجاً صادقاً: عقلاً يبحث ولا يعبد نفسه، وقلباً يخشع ولا ينسحب من العمران، وقوة تحمي ولا تطغى، وثروة تنتج ولا تستعبد، واختلافاً لا يتحول إلى سحقٍ للكرامة.

خير البرية في لحظات الاختيار الخفية

لا يصنع هذا المقام في المواقف الكبرى وحدها؛ فكل يوم يضع أمام الإنسان مفترقاتٍ صغيرة: يستطيع أن يكذب فيختار الصدق، ويقدر على الانتقام فيختار العدل، ويمكنه أن يمر بالمحتاج فيتوقف، ويجد طريقاً سهلاً إلى الحرام فيغلقه. في كل اختيارٍ من هذه الاختيارات يتشكل شيءٌ من هويته الأبدية.

إننا لا نصبح صالحين فجأةً عند المواقف العظيمة إذا لم نتدرب على الصلاح في التفاصيل. من اعتاد خيانة الدقائق قد لا يثبت في امتحان الساعات، ومن استهان بالكذبة الصغيرة قد يصعب عليه الصدق حين يرتفع

التمن. الشخصية الأخلاقية تُبنى كما يُبنى الجدار: لبنةً لبنة، وربما تحدد قطعةً
ظنها الإنسان تافهة استقامة البناء كله.

ولا شيء تافه في ميزان القلب؛ فالنظرة التي يكفها، والكلمة التي يحبسها،
والنية التي يصححها، والكسرة التي يضعها في يد جائع، كلها تشارك في
صناعة الإنسان الذي سيلقى الله. قد ينساها هو، لكن الله لا ينساها، وقد لا
يراها الناس، لكنها تقع في موضعها من بناء الخيرية.

من خير البرية إلى جزائهم

بعد أن أثبتت الآية لهم مقامهم، لم تترك الجزاء مجهولاً؛ فالآية الأخيرة
ستكشف ما أعدّه الله لهم: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وليس الجزاء عند ملكٍ
يتغير مزاجه، ولا عند جمهورٍ يصفق اليوم وينسى غداً، بل عند ربهم؛ الذي
ربّاهم بالنعم، وهداهم بالبينّة، وأعانهم على الإيمان، ورأى جهادهم الذي لم
يره أحد.

وهناك ستظهر جنات عدن، والإقامة التي لا يقطعها رحيل، والأنهار
التي تجري من تحتها، والخلود الذي لا يهدده موت. لكن السورة تنجي في آخر
كلماتها جوهرةً أعلى من كل نعيم محسوس: ﴿رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

إن خير البرية لم يعملوا الصالحات لكي يصنعوا مجداً ينتهي عند أبواب القبور؛ كانوا يسيرون إلى رضا الله، حتى إذا انتهت الرحلة وجدوا أن الله رضي عنهم، وأن قلوبهم قد تطهرت من كل اعتراضٍ ونقص، فرضيت عنه رضا العارفين بجمال حكمته وتمام فضله.

وهكذا ينتقل بنا ختام السورة من صلاح العمل إلى نعيم الجنة، ثم من نعيم الجنة إلى نعيم القرب، ثم يضع سر الطريق كله في آخر عبارة: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

فالخيرية التي ظهرت في العمل كانت قد بدأت من خشيةٍ خفيةٍ في القلب؛ خشيةٍ جعلت الإنسان يرى الله أعظم من أن يعصيه، وأرحم من أن يهرب منه، وأقرب من أن يحتاج إلى أن يراه الناس.

الفصل السابع

رضوان الله: حين تنتهي رحلة الخشية إلى الطمأنينة الكبرى

الآية الثامنة

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^ط

تبلغ سورة البينة في آيتها الأخيرة ذروةً من الجمال لا يمكن للقلب أن يعبرها سريعاً؛ فقد بدأت بإنسانية عالقة في الكفر، ثم جاءت البينة رسولاً يتلو صحفاً مطهرة، وانكشف التفرق بعد العلم، وعاد الدين إلى جوهر الإخلاص والصلاة والزكاة، ثم افترق المصير بين شر البرية وخير البرية، حتى انتهت الرحلة إلى هذه السكينة العظمى: جنات تجري، وخلود لا ينقطع، ورضوان من الله، وقلب بلغ من الطمأنينة أن رضي عن ربه.

كانت السورة في بدايتها تتحدث عن قومٍ غير منفكين عما هم فيه، ثم تنتهي بمؤمنين خالدين فيما أعده الله لهم. وبين الثابتين فرقٌ يصنعه موقف الإنسان من البينة: أولئك ثبتوا على ما ورثوه حتى جاءتهم الحجة ثم رفضها من رفض، وهؤلاء ثبتوا على الإيمان والعمل حتى صار ثباتهم في الآخرة خلوداً في النعيم.

وَكأن الحياة انتقالٌ من تعلقٍ إلى تعلق: من انفك عن الباطل بالبينّة، تعلق بالله حتى انتهى إلى دارٍ لا ينفك عنها أبداً.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

حين تُحفظ الأعمال في الموضع الذي لا يضيع فيه شيء

يبدأ مشهد الجزاء بالإضافة الحانية: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. لم يقل: جزاؤهم موجودٌ فحسب، بل جعله عند ربهم؛ في الموضع الذي لا تصل إليه يدٌ لنفسه، ولا حادثةٌ لتبدده، ولا نسيانٌ ليمحو أسماء أصحابه. وما كان عند الله لا يُخشى عليه الضياع، ولو ضاع ذكره في الأرض، وما حفظه الله لا يحتاج إلى خزائن البشر ولا إلى دفاترهم المتقلبة.

كم من عملٍ صالح ظنه صاحبه قد انتهى لحظة انتهائه؛ كلمةٌ قالها ثم نسيها، وصدقةٌ دفعها في خفاء، وألمٌ كتم معه لسانه عن السخط، وحقٌ حفظه مع قدرته على الخيانة، وركعةٌ قام إليها حين كانت نفسه مثقلةً بالتعب. ربما لم يبق لهذه الأعمال أثرٌ في ذاكرة الناس، لكنها انتقلت إلى موضع آخر: صارت عند ربهم.

إن الإنسان يعاني من خوف الضياع؛ يريد أن يرى الثمرة كي يطمئن، وأن يعرف الناس جهده كي يشعر أن أيامه لم تبده. لكن الإيمان بالجزاء عند الله

يحرره من هذا القلق؛ فليس كل ما لم يره الناس ضائعاً، وليس كل ما لم يثر سريعاً فاشلاً. قد يكون أعظم محصولٍ للعمل قد نُقل إلى الآخرة، حيث لا تأكله آفة الشهرة ولا يتبخر بانتهاء العمر.

وكلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ تستدعي معاني التربية والرعاية والرحمة؛ فهو الذي خلقهم، ورباهم بنعمه، وأرسل إليهم البينة، وفتح لهم أبواب الهداية، وأعانهم على العمل، ثم نسب الجزاء إليهم فضلاً، كأنهم استقلوا بإنتاجه. وما أكرم الله: يهدي العبد، ويوفقه، ويثبت قلبه، ثم يشكر له ما فعله بتوفيقه ويجزيه عليه جناتٍ لا تنفد.

إن المؤمن لا يدخل الجنة لأنه فرض على الله ثمناً يعادل عمله؛ فنعمةٌ واحدة من نعم الله أوسع من أن يوفيها جهد العمر كله، وإنما يدخلها برحمة الله وفضله، وتكون أعماله سبباً في استحقاق الوعد وتفاوت الدرجات. العمل علامة الصدق وطريق الطاعة، لكنه لا يجعل العبد مستغنياً عن الرحمة؛ وكلما ازداد عمل المؤمن ازداد معرفةً بتقصيره وافتقاره.

الجزء الذي يتجاوز قدرة العمل

أيام الإنسان محدودة، وأعماله مهما كثرت متناهية، لكن الجزاء جنات عدن وخلودٌ أبدي. وهذا يكشف أن العلاقة بين الطاعة والثواب ليست

علاقة معاوضةٍ مادية جامدة؛ فالله لا يمنح العبد بقدر عمله الحسابي فقط، بل يفيض عليه من فضله ما لا يستطيع العمل المحدود أن يساويه.

ركعاتٌ قليلةٌ في ليالٍ معدودة تصبح نعيمًا لا ينقضي، وصدقةٌ خرجت من مالٍ فإنَّ تصبح ظلالًا باقية، وصبرٌ على ساعة ألمٍ يثر راحةً لا يمر بها وجع. إن الله يتعامل مع عباده بالفضل، يأخذ منهم البذرة الصغيرة وينبت لهم منها بستانًا أبدياً.

ولهذا لا ينبغي أن يحتقر الإنسان عملاً صالحاً؛ فهو لا يعرف بأي عملٍ يفتح الله عليه رحمته. قد تكون لحظة صدقٍ خفية، أو عفواً عن مسيء، أو رحمةً بمخلوقٍ ضعيف، أو دمعةً من خشية الله، هي العمل الذي تلتقاه الرحمة فتباركه. ولا يعني هذا أن يكتفي بالقليل متعمداً، بل أن يبذل ما يستطيع وآلا يئأس من قيمة ما يقدر عليه.

الله لا يطلب من العبد أن يأتيه بعملٍ يساوي الجنة، فهذا لا يملكه، وإنما يطلب صدق الاتجاه؛ أن يعبد به بما يستطيع، ويتوب من تقصيره، ويظل متعلّقاً برحمته. فمن ظن أنه سيدخل الجنة بقوته وحدها وقع في العجب، ومن ظن أن تقصيره يغلق باب الرحمة وقع في القنوط، وكلاهما غفل عن سعة الربوبية.

﴿جَنَاتُ عَدْنٍ﴾

الإقامة التي لا يهددها الرحيل

الجنات جمعٌ يوحي باتساع ألوان النعيم وتنوعها؛ فليست جنةً ضيقةً يبلغ المرء طرفها فينتهي شوقه، بل عوالم من الجمال تتجدد فيها المسرات دون أن تدخلها السآمة. وكل جمالٍ عرفه الإنسان في الأرض ليس إلا ظلًا بعيدًا يقرب إلى خياله ما لا تستطيع لغته أن تحيط به.

و﴿عَدْنٍ﴾ تحمل معنى الإقامة والاستقرار؛ فالنعيم هناك لا يمر مرور الضيف، ولا يسكنه صاحبه وهو يخشى انتهاء العقد أو اقتراب الرحيل. لقد أفسد الفناء على الإنسان كثيراً من لذاته في الدنيا؛ فما إن يحب شيئاً حتى يبدأ خوف فقده، وما إن تكتمل لحظة جميلة حتى يمر عليها الزمن، وما إن يبني بيتاً حتى يعرف في موضعٍ خفي من نفسه أنه سيغادره.

كل أفراح الدنيا محاطةٌ بهشاشةٍ تجعل القلب غير قادرٍ على الاطمئنان الكامل إليها؛ صحةٌ يمكن أن يقطعها المرض، واجتماعٌ يبدده الموت، وشبابٌ تأكله الأيام، وأمانٌ تهزه الحوادث. حتى في ذروة الفرح يقف الفناء بعيداً كظلٍ لا يغادر المشهد.

أما جنات عدن فهي استقرارٌ لا يتربص به زوال؛ يضع المؤمن فيها رحاله بعد أن كانت حياته كلها سفرًا. لقد تنقل من حالٍ إلى حال، ومن خوفٍ إلى رجاء، ومن فقدٍ إلى فقد، ثم بلغ وطنًا لا يُنفى منه، وبيتًا لا يتركه، وأحبابًا لا يودعهم. هنالك فقط يشرب القلب معنى الإقامة دون أن يختلط الماء بمرارة الرحيل.

إن شوق الإنسان إلى البيت الدائم أعمق من رغبته في البناء؛ فهو يبحث طوال عمره عن موضعٍ يشعر فيه أن وجوده ليس مهددًا. لكنه لا يجد هذا الشعور كاملاً على الأرض؛ لأن الدنيا لم تُخلق لتكون دار الخلود. وكلما حاول أن يجعلها جنةً نهائيةً أيقظه الموت من وهمه، لا ليعذبه، بل ليدله على أن طلب البقاء في داخله دليلٌ على دارٍ أخرى أعدها الله له إن آمن واستقام.

الجنة تصحيحٌ لذاكرة الألم

يدخل أهل الجنة إليها وقد مروا في الدنيا بأحزانٍ وابتلاءات، لكن النعيم لا يضع ضماً مؤقتاً على جراحهم، بل يرد على معنى الألم كله. هناك يفهمون أن لحظات الصبر لم تبدد، وأن الدمع الذي سقط في الخفاء كان معلوماً، وأن الأبواب التي أغلقت في وجوههم لم تكن نهاية القصة.

كم من مظلومٍ مات ولم ير عدله في الأرض، وكم من مؤمنٍ حمل وجعاً لم يجد له تفسيراً كاملاً، وكم من قلبٍ عاش وحشةً لا يعرفها أحد! في الجنة لا يعود الماضي شوكةً في الذاكرة؛ تتكشف حكمة الله، ويغمر النعيمُ الروح حتى تدرك أن الله لم ينسها لحظةً واحدة.

ليس معنى ذلك أن الألم في الدنيا وهم، فهو حقيقي وثقيل، لكن الآخرة تكشف أنه لم يكن الفصل الأخير. والمأساة حين تُقتطع من سياق الخلود تبدو بلا معنى، أما حين توضع في كتابٍ ينتهي إلى عدل الله ورحمته، فإنها تستعيد موضعها دون أن ينكر المؤمن قسوتها.

الإيمان بالجنة لا يطلب من الحزين أن يتظاهر بأن جرحه غير موجود، بل يقول له: جرحك ليس خالداً، والذي يعلم به قادرٌ أن يجعلك تذكره يوماً دون أن يؤلمك. إن خلود النعيم هو النهاية التي تعيد تفسير الطريق كله.

﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

الجمال المتحرك الذي لا يعرف الركود

نتكرر صورة الأنهار في وصف الجنة؛ لأنها تجمع بين الحياة والجمال والتجدد. الماء في الحس البشري أصل الحياة، وصوته سكونية، وجريانه حركةٌ

لا تحمل تعباً. والقرآن يخاطب الإنسان بما يعرف من صور الجمال، ثم يفتح له وراء الألفاظ حقيقةً أعظم من خياله.

لم يقل إن الأنهار بجوارها فحسب، بل ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾؛ كأن النعيم محيطٌ بأهل الجنة، تجري أنهاره تحت قصورهم وأشجارهم حيث شاء الله، بلا مشقة حفرٍ ولا خوف جفاف، ولا نزاعٍ على منابع الماء. إن الأشياء التي كانت في الدنيا أسباباً للصراع تتحول هناك إلى عطاءٍ خالص لا يزاحم فيه أحدٌ أحداً. في الدنيا قد يملك الإنسان النهر ولا يملك الطمأنينة، وقد يعيش في أجمل مكانٍ بينما يحمل في داخله أرضاً قاحلة. أما في الجنة فيتوافق جمال المكان مع سلام القلب؛ فلا حسد يعكر النعيم، ولا خوف يسرق الحاضر، ولا ذكرى مؤلمة تقف بين العين والمنظر. إن كمال الجنة ليس في وفرة الأشياء فقط، بل في كمال النفس التي تتلقاها.

قد تُعطى الإنسان في الأرض نعمةً عظيمة، لكن روحه المضطربة تعجز عن تذوقها؛ لأنها مشغولةٌ بالمقارنة أو الخوف أو الطمع فيما وراءها. أما أهل الجنة فقد نُزعت من صدورهم أسباب الشقاء، وصار كل واحدٍ منهم قادراً على الفرح الكامل دون أن يشعر أن فرح غيره ينتقص منه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

الأمان من النهاية

أكدت الآية الخلود بقولها: ﴿أَبَدًا﴾، حتى يسقط آخر خوفٍ يمكن أن يمر بالقلب: خوف أن ينتهي النعيم. ففي الدنيا قد يقلق الإنسان من زوال السعادة أكثر مما يستمتع بحضورها؛ كلما اتسعت النعمة اتسع معها احتمال الفقد، ولذلك لا تكتمل الطمأنينة في دار كُتب عليها التغير.

أما هناك، فإن كلمة ﴿أَبَدًا﴾ تحرس كل فرح؛ لا موت بعد الحياة، ولا هرم بعد الشباب، ولا مرض بعد العافية، ولا فراق بعد اللقاء. يمر على أهل الجنة من دوام النعيم ما لا يحصى، ولا يقربهم مرور الزمن من النهاية؛ لأنه لا نهاية.

نحن لا نستطيع أن نتصور الأبد تصويرًا كاملاً؛ فعقولنا تشككت داخل الزمن، وتعرف لكل شيء بدايةً ونهايةً. لكن عجز الخيال عن احتواء الخلود لا ينقص من حقيقته؛ بل يكشف أن ما أعده الله يتجاوز أدوات إدراكنا الحالية. كيفينا أن نعلم أن اللحظة التي يخاف فيها القلب قائلًا: ربما ينتهي هذا—لن تأتي أبدًا.

والمفارقة بين أهل النار وأهل الجنة تظهر في تكرار الخلود، لكنها مفارقةٌ كاملة في طبيعة المصير: خلودٌ في العذاب لمن مات على رفض البيّنة، وخلودٌ في النعيم لمن آمن وعمل صالحاً. وبين المصيرين كان عمرٌ واحد، وبيّنةٌ واحدة، وحريةٌ منحها الله للإنسان ليحدد بها الطريق.

إن قيمة الحياة لا تُقاس بطولها، بل بما تفضي إليه؛ قد تكون أعمارنا أمام الأبد لحظةً، لكنها لحظة القرار. إنها قصيرةٌ إلى الحد الذي يجعل إضاعتها خسارةً فادحة، وعظيمةٌ إلى الحد الذي يُصنع فيها مصيرٌ لا ينتهي.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾

الجائزة التي تصغر أمامها الجنات

بعد ذكر الجنات والأنهار والخلود، ترتفع الآية إلى مقامٍ أعظم: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾. كأن نعيم المكان، مع عظمتها، ليس الذروة؛ الذروة أن يعلم العبد أن الله رضي عنه، وأن رحلة التقصير والمجاهدة انتهت إلى قبول، وأن القلب الذي ظل يسأل في الدنيا: يا رب، هل رضيت؟ يتلقى الجواب الذي يملأ وجوده كله طمأنينة.

ما قيمة كل مدح بشري إذا كان الله غير راضٍ؟ وما ضرر أن يجهلك أهل الأرض إذا عرفك الله بالقبول؟ إن الناس قد يرضون عن الإنسان لأنه

وافق أهواءهم، وقد يسخطون عليه لأنه قال حقًا أزعمهم، فراضاهم ليس دليلاً كاملاً ولا غايةً تصلح أن تُعبد. أما رضا الله فهو الميزان الذي إذا استقام لم يضرّ العبد اضطراب الموازين كلها.

وكم يرهق الإنسان نفسه في طلب رضا المخلوقين! يحاول أن يجمع قلوباً مختلفة، فإذا أَرْضَى هذا أغضب ذاك، وإذا صنع صورةً تعجب جماعةً نفرت منها أخرى، ثم يكتشف أن مطاردة الرضا العام طريقٌ لا نهاية له. لا يستطيع أن يرضي الناس جميعاً، ولا كُلِّف بذلك؛ إنما كُلِّف أن يرضي الله، وأن يعدل ويحسن إلى الناس في حدود الحق.

حين تصبح غاية الإنسان رضا الله، لا يتحول إلى قاسٍ لا يبالى بالخلق؛ بل يصير أكثر رحمةً وعدلاً، لأن الذي يرضي الله هو حفظ حقوقهم والإحسان إليهم. لكنه يتحرر من أن يجعل تقلب مشاعرهم مصدر قيمته. يحبهم دون أن يعبد حبهم، ويحسن إليهم دون أن يبيع لهم ضميره، ويقبل النصيحة دون أن يجعل المدح غداء وجوده.

كيف ينال العبد رضا الله؟

يناله بالإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة، لا بدعوى الكمال. هؤلاء الذين رضي الله عنهم لم يكونوا ملائكةً بلا ضعف، وإنما عباداً آمنوا وجاهدوا

أنفسهم وعادوا إذا أخطؤوا. إن رضا الله لا يقتضي أن يكون للإنسان ماضٍ بلا ذنب؛ فالتائب الصادق قد يحول الله سقوطه إلى بابٍ لمعرفة رحمته وانكسار قلبه.

الخطر ليس في أن يخطئ الإنسان، بل في أن يَأْلَفَ الخطأ حتى لا يعود يراه، أو يستكبر عن الاعتراف، أو يئأس من الرحمة. أما من كلها ابتعد عاد، وكلما اتسخ غسل قلبه بالندم والاستغفار، فإنه يسير إلى الله ولو كثرت عثراته؛ فالسائر ليس من لم يسقط قط، بل من لم يجعل السقوط وطناً.

ورضا الله منزلةً ينبغي أن تكون حاضرةً في القرارات اليومية، لا أمنيةً مؤجلةً إلى الآخرة. قبل الكلمة يسأل: أيرضى الله عنها؟ وقبل المال: أيرضى عن طريقه؟ وقبل الخصومة: أيرضى عن عدلي فيها؟ وبذلك يتحول طلب الرضا إلى بوصلةٍ تضبط التفاصيل، لا شعارٍ جميل يعلّق فوق حياةٍ تسير في الاتجاه الآخر.

وقد يعرف العبد شيئاً من آثار الرضا في الدنيا: سكينَةٌ مع الطاعة، وتوفيقاً إلى الخير، وبغضاً للمعصية، وحلاوةٌ في المناجاة، لكن هذه الآثار ليست معياراً قطعياً للحكم على المقام؛ فقد يبتلي الله من يحب، وقد تمر بالمؤمن فترات

جفافٍ روحي وهو على طريق الطاعة. العبرة بالثبات على أمر الله، لا بمطاردة
الشعور وحده.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾

حين يشفى القلب من اعتراضه الخفي

هذه العبارة من أصفى ما يمكن أن تنتهي إليه رحلة الإنسان: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾. رضي الله عنهم قبولاً وإكراماً، ورضوا عنه لما رأوا من كمال فضله
وصدق وعده وجمال جزائه. لم يعد في القلب سؤالٌ مَوجع، ولا حسرةٌ على ما
فات، ولا اعتراضٌ على قدرٍ مضى؛ فقد انكشفت الحكمة، وزال الحجاب،
وعرفوا أن كل ما ساقهم الله إليه كان محفوظاً داخل علمه ورحمته.

في الدنيا يتعلم المؤمن الرضا وسط محدودية الرؤية؛ يرى فصلاً واحداً من
القصة ويؤمن بحكمة المؤلف، وقد يتألم من حدثٍ لا يفهم سببه، لكنه لا
يسيء الظن بربه. أما في الآخرة، فإن الرضا يكتمل بعد انكشاف العطاء؛ لا
يبقى في النفس أثرٌ لوهم أنها حُرمت شيئاً كان خيراً لها، ولا تمنى لو أن
طريقها كان غير ما كان.

والرضا عن الله لا يعني أن يحب الإنسان الألم لذاته، أو لا يسعى لتغيير
واقع سيئ، أو يسكت عن الظلم؛ إنما يعني أن يطمئن إلى حكمة الله في تدبير ما

لا يملك تغييره، وأن لا يتحول وجعه إلى اتهامٍ لربه. يشكو إلى الله لا من الله، ويبيكي في حضرته لا هارباً منه، ويأخذ بالأسباب ثم يرضى بما جرى بعد بذلها.

قد يقول المرء: رضيت، بينما قلبه ما يزال ينزف؛ وليس كل ألم اعتراضاً. يمكن أن يكون راضياً ويبيكي، ومؤمناً بالحكمة ولا يفهمها، ثابتاً ويتمنى زوال البلاء. الرضا مقامٌ في العلاقة بالله، لا إلغاءٌ للطبيعة البشرية؛ قلبه يقول وسط الدمع: يا رب، لا أعلم وجه الحكمة، لكنني أعلم أنك لا تظلمني.

إن الله لا يطالب الحزين أن يكذب بشأن ألمه؛ لقد شكّا يعقوب عليه السلام بثه وحزنه إلى الله، وبكى لفقد يوسف، ولم يناقض ذلك يقينه. العبودية الصادقة تتسع للإنسان كاملاً: لقوته وضعفه، وابتهامته ودمعته، وسؤاله وتسليمه. المهم أن يبقى الباب الذي يطرق عليه هو باب الله.

رضاهم عنه هو نهاية صراع المقارنة

كثيرٌ من سخط الإنسان ينشأ من النظر إلى ما في أيدي الآخرين؛ لماذا أُعطي فلان وحرمت؟ لماذا كان طريقه أسراً؟ لماذا جاءت الإجابة له وتأخرت عني؟ والمقارنة تجعل العبد يقرأ قصته بعينٍ مستعارة، فلا يرى ما حُص به من النعم، ولا يعرف ما خفي من ابتلاء الآخرين.

في الجنة تنتهي المقارنة المؤلمة؛ كل إنسانٍ ممتلئٌ بنعيمه، لا يرى زيادة غيره نقصاً فيه، ولا تتحول الدرجات إلى حسد. لقد طهر الله الصدور، فصار تفاضل النعيم نفسه داخل سلامٍ كامل. وهذا من أعظم الجنة: أن ينجو القلب من نفسه، فلا تعود له تلك القدرة العجيبة على إفساد النعمة بالنظر إلى نعمة غيره.

إن رضاهم عن الله ليس فقط رضاهم بما أعطاهم، بل رضاهم به رباً؛ وهذا أعلى من الرضا بالعطية. قد يحب الإنسان المعطي من أجل ما أعطاه، لكن أهل القرب يتجاوزون النعمة إلى المنعم؛ يرون أن أعظم ما نالوه ليس أنهار الجنة ولا قصورها، بل أنهم صاروا في دار كرامته، وأن الحجاب الذي كان يثقل أرواحهم قد زال.

الرضا المتبادل: اكتمال العهد بين العبد وربّه

﴿رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ جملةٌ تجمع حركة العبودية كلها: خرجوا من الدنيا يطلبون رضاه، فوجدوا رضاه ينتظرهم، ورضوا به في زمن الغيب والابتلاء، فأرضاهم في زمن الكشف والجزاء. لم تكن طاعتهم صفقةً باردة، بل علاقة حبٍ وخشيةٍ ورجاءٍ، ولذلك لم يكن جزاؤهم أشياءً فحسب، بل قرباً ورضواناً.

في الدنيا يقول المؤمن: رضيت بالله رباً، وهو لم ير الجنة بعد، ولم تنكشف له كل الحكم، ولم تتوقف الابتلاءات. هذا الرضا إيماناً بالغيب؛ أما في الآخرة فإنه يرى من فضل الله ما يجعل الرضا نهراً يجري في روحه بلا منغص. وما أكرم هذا اللقاء: عبداً جاء بأعمالٍ ناقصة وتوبةٍ متكررة وقلبٍ ظل يجاهد، وربٌّ كامل الرحمة قبل القليل وغفر الكثير وضاعف الحسنات، ثم أعلن رضاه. هناك يدرك العبد أن نجاته لم تكن شهادةً بكامله، بل شهادةً بفضل الله الذي لم يتركه لنفسه.

الخشوف من عدم القبول

كان الصالحون يعملون ويخافون ألا يُقبل منهم، لا سوء ظنٍ بالله، بل سوء ظنٍ بكامل أعمالهم ومعرفةً بحق ربهم. فالعمل قد تشوبه غفلة، والنية قد يدخلها حظ، والطاعة قد يعقبها عجب، ولذلك ظلوا يسألون القبول. أما الغافل فقد يعمل قليلاً ثم يرى لنفسه حقاً عظيماً، وكأنه قد ضمن الرضا. والفرق بينهما أن العارف يرى نعمة التوفيق قبل أن يرى جهده، بينما يرى المعجب جهده وينسى من أعانه عليه. وكلما عرف الإنسان الله حق المعرفة، صغرت طاعته في عينه دون أن يتركها، وكبر رجاؤه في فضل الله دون أن يتكل عليه فيترك العمل.

إن التوازن بين الخوف والرجاء يحمي القلب؛ يخاف فلا يغتر، ويرجو فلا يقنط. فإذا غلب الخوف حتى أدخله اليأس، تذكر الرحمة، وإذا غلب الرجاء حتى جره إلى الأمان الكاذب، تذكر الحساب. يمشي إلى الله بجناحين، فلا يسقط في وادي العجب ولا في وادي القنوط.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾

السر الخفي وراء المصير المضيء

تختم السورة كلها بالخشية. بعد الحديث عن الإيمان والعمل والجنات والرضوان، تكشف أن وراء هذه الرحلة قلباً خشي ربه. والخشية ليست رعباً مجرداً، بل خوفٌ ممتزجٌ بالمعرفة والتعظيم؛ كلما عرف العبد ربه عرف جلاله، وعرف نفسه فأدرك تقصيره، فصار بين خوفٍ يدفعه عن المعصية ورجاءٍ يجذبه إلى الرحمة.

لم تقل الآية: ذلك لمن خشي العذاب فقط، بل ﴿خَشِيَ رَبَّهُ﴾؛ فالخشية متعلقةٌ بالرب ذاته: يخشى أن يسخط عليه من أحبه، وأن يراه حيث نهاه، وأن يفقد قربَه ورضاه. وقد يترك الإنسان الذنب خوفاً من العقوبة، وهذا باب خير، لكن المقام يرتفع حين يتركه حياءً من الله وتعظيماً له، لأنه لا يريد أن يقابل إحسان ربه بالعصيان.

وكلمة ﴿رَبِّهِ﴾ تجمع الجلال والرحمة؛ فالذي يخشاه هو نفسه الذي ربه وأنعم عليه وفتح له باب التوبة. ليست خشية عبدٍ من سيدٍ ظالم يترصد به، تعالى الله عن ذلك، بل خشية مخلوقٍ يعرف عدل ربه وعظمته، ويعرف في الوقت نفسه رحمته. ولذلك لا تدفعه الخشية إلى الفرار من الله، بل إلى الفرار إليه.

الخوف من المخلوق يجعل الإنسان يبتعد عنه، أما خشية الله فتجعله يقترب؛ لأنه لا نجاة من الله إلا بالله، ولا مأمن من عدله إلا في رحمته، ولا طريق إلى طمأنينة القلب إلا عند بابه. كلما خاف العبد من ذنبه لجأ إلى ربه بالاستغفار، فلا يتحول الخوف إلى قطيعة، بل يصبح جيل عودة.

الخشية في الغيب

أصدق الخشية ما ظهر أثرها حين يغيب الرقيب البشري. قد يترك الإنسان خطأ أمام الناس حفاظاً على سمعته، لكن الذي يخشى ربه يتركه وهو قادرٌ عليه في خلوته؛ لأن الله ليس غائباً عن وعيه. تلك هي الحرية الأخلاقية العليا: أن يكون في الداخل ميزانٌ لا يحتاج إلى شرطيٍّ يقف عند كل باب.

المجتمع الذي لا يعمل أفرادهِ إلا تحت الرقابة يحتاج إلى عيونٍ بعدد أنفاسهم، ولن يستطيع القانون أن يلاحقهم في كل موضع. أما الخشية فتزرع الرقيب داخل الضمير؛ تجعل التاجر يصدق حين يستطيع الغش، والموظف يصون المال العام حين يستطيع اختلاسهِ، والكاتب يتحرى الحقيقة حين يستطيع تضليل قارئهِ، والقوي يكف عن الضعيف حين لا يخشى عقوبةً من البشر.

ولا يعني هذا الاستغناء عن القانون والمؤسسات؛ فالنفوس تتفاوت، والعدل يحتاج إلى نظام، لكن الخشية تمنح النظام روحه. القوانين بلا ضمائر تتحول إلى نصوصٍ يبحث المفسدون عن ثغراتها، والضمائر بلا قوانين قد تعجز عن حماية الحقوق من أصحاب النفوس المريضة. الدين القيم يبيّن الإنسان من الداخل، ويبيّن حوله موازين العدل في الخارج.

الخشية وليدة المعرفة

ليست الخشية جهلاً بالله، بل ثمرة معرفة؛ كلما عرف الإنسان سعة علم الله استحيًا أن يخفي عنه معصية، وكلما عرف قدرته لم يتوهم أن شيئاً يفوته، وكلما عرف رحمته خاف أن يحرم نفسه منها، وكلما عرف عدله لم يأمن عاقبة الظلم.

ولهذا لا تُصنع الخشية بالصراخ وحده، ولا بتكثير صور الرعب دون بناء المعرفة؛ قد يخاف الإنسان لحظةً ثم ينسى، أما الخشية الراسخة فتنبع من تصور عميق لله والآخرة والنفس. إنها ليست موجة انفعال، بل بصيرةٌ تستقر في القلب وتعيد تشكيل القرار.

ومن عرف الله بأسمائه وصفاته من غير تشبيهٍ ولا تمثيل، على ما يليق بجلاله سبحانه، عرف أنه ليس كمثله شيء، وأن رحمته ليست كرحمة المخلوق، وعلمه ليس كعلمه، وقدرته لا تحدّها حدود. هذه المعرفة تملأ القلب هيبةً ومحبةً، فلا يختزل المؤمن علاقته بربه في الخوف وحده ولا في الرجاء وحده، بل يعبده جامعاً بين المحبة والخشية والرجاء.

حين تتحول الخشية إلى جمال

قد يظن البعض أن الخشية تجعل الإنسان قائماً منقبضاً، لكن الخشية الصحيحة تهذبه ولا تحطمه؛ تجعله أقل ظلماً، وأسرع اعتذاراً، وأرق بالضعفاء، وأكثر انتباهاً لحقوق الناس. من خشي الله لم يحتج إلى أن يخافه الناس؛ لأنه لا يبني قوته على إرعابهم، ولا يجد لذةً في السيطرة عليهم.

الذي يخشى ربه لا يحتقر العاصي، بل يخاف أن يُبتلى بما ابتلي به، ويرجو له التوبة. ولا يغتر بطاعته، لأنه يعلم أن القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف

يشاء على ما يليق بجلاله، فيسأل الثبات. ولا يفضح الناس متلذذاً، لأنه يرجو ستر الله عليه. وهكذا تتحول الخشية من شعورٍ داخلي إلى أخلاقٍ جميلةٍ في الخارج.

أما الخوف الذي يجعل صاحبه قاسياً على الناس، متعالياً عليهم، سريعاً إلى تبديعهم وتجريمهم بلا علم، فقد دخله شيءٌ من أمراض النفس؛ إذ إن من عرف جلال الله حقاً تواضع، ومن عرف فقره إلى المغفرة رحم المحتاجين إليها.

خشية لا تشلّ الحياة

الخشية ليست أن يظل الإنسان مرعوباً عاجزاً عن العمل، بل أن يعمل وهو يعرف المسؤولية. يخشى الخطأ فيتحرى، لكنه لا يتوقف عن الاجتهاد؛ يخشى الرياء فيجاهد نيته، لكنه لا يترك الخير؛ يخشى الحساب فيؤدي الأمانة، لا فينسحب من ميادين الحياة.

إن الشيطان قد يدخل على بعض الصالحين من باب الخوف، فيقنعهم أن عملهم كله رياء، وأن توبتهم غير مقبولة، وأن ماضيهم أقوى من رحمة الله؛ وهذا ليس من الخشية المحمودة، بل من القنوط وسوء الظن الذي ينبغي

دفعه. الخشية القرآنية تقود إلى الجنة والرضوان، فلا يمكن أن تكون طريقاً إلى اليأس من الله.

كل خوفٍ يبعدك عن التوبة يحتاج إلى تصحيح، وكل رجاءٍ يجرك على المعصية يحتاج إلى تصحيح. الخشية الصحيحة تقول لك: ذنبك خطير، فلا تستمر؛ والرجاء الصحيح يقول: رحمة الله واسعة، فلا تيأس. وبينهما ينهض العبد من موضع سقوطه ويمشي.

من البيّنة إلى الخشية: اكتمال دائرة السورة

تأمل كيف بدأت السورة وكيف انتهت: بدأت بـ ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ وانتهت بـ ﴿خَشِيَ رَبَّهُ﴾. البيّنة تأتي من الخارج: رسولٌ يتلو صحفاً مطهرة؛ والخشية تولد في الداخل: قلبٌ عرف فاستجاب. وبين النور الوارد والقلب الخاشع تقوم رحلة الهداية كلها.

ليس المطلوب أن تصل المعلومة إلى العقل فقط، بل أن تنزل منه إلى موضع الخشية، ثم تتحول إلى إخلاصٍ وصلاةٍ وزكاةٍ وإيمانٍ وعملٍ صالح. وإذا توقفت البيّنة عند حدود المعرفة، بقي الإنسان قادراً على التفرق والعناد؛ أما إذا بلغت القلب، صنعت خشيةً تحرس العمل حين تغيب العيون.

بدأت السورة بأهل الكتاب والمشرّكين وقد علق بعضهم في إرثه، ثم انتهت بفردٍ يخشى ربه. وكأنها تنقلنا من ازدحام التسميات الجماعية إلى حقيقة العلاقة الشخصية بالله؛ ففي النهاية سيقف كل إنسان وحده، لا تحمله جماعته، ولا يغني عنه تاريخ قومه، وإنما يلقي ربه بقلبه وعمله.

وبدأت بالذين لم يكونوا منفكين عن حالهم، ثم انتهت بخالدين في جنات عدن؛ فالهداية هي الانفكاك الأعظم: أن يفك الله قلب الإنسان من أسر ما اعتاد، لينحه استقراراً أبدياً في رضوانه. من لم يستطع أن يفارق باطله في زمن الاختيار، انتهى إلى مصيرٍ لا يستطيع مفارقه؛ ومن فارق هواه لله، بلغه الله وطناً لا يرحل عنه.

إن آخر كلمةٍ معنوية في السورة هي الرب؛ لتبقى الرحلة كلها في حضرة الربوبية. الذي أرسل البينة هو الرب، والذي أمر بالإخلاص هو الرب، والذي يقبل الأعمال هو الرب، والذي أعد الجنات هو الرب، والذي تُخشى عظمته وتُرجى رحمته هو الرب. لم يكن الإنسان متروكاً في أي مرحلة؛ كان الله يهديه، ويربيه، ويمهله، ويفتح له الباب، ثم يجزيه.

وهكذا أتمنا التدبر في الآيات الثماني كلها، من مجيء البينة إلى مقام الخشية والرضوان. ولم يبق من بناء الكتاب إلا الخاتمة الفكرية الجامعة؛ حيث

نجمع خيوط السورة في رؤيةٍ واحدة، ونستخرج منها رسالتها للإنسان والعلم
والدين والحضارة والمصير.

حين تصير البيّنة حياةً في القلب

تنتهي سورة البيّنة، ولكن سؤالها لا ينتهي؛ لأن كل إنسان يعيش، بصورةٍ ما، لحظة وصول الحجّة إليه، ثم يكتب بموقفه منها الصفحة الأشد أثراً في مصيره. لقد نقلتنا السورة من بشريةٍ لم تكن منفكةً عن ضلالها إلى رسولٍ من الله يتلو صحفاً مطهرة، ومن التفرق بعد العلم إلى صفاء الدين في الإخلاص والصلاة والزكاة، ثم وضعتنا بين نهايتين لا تلتبسان: طريقٍ يفضي إلى النار، وطريقٍ ينتهي إلى جنات عدن ورضوان الله.

ولقد كشفت السورة أن أزمة الإنسان ليست دائماً فقراً في الأدلة، بل قد تكون عجزاً أخلاقياً عن احتمال ما تقتضيه الأدلة؛ فالحقيقة حين تأتي لا تسأل العقل وحده، وإنما تمتحن تواضع القلب واستعداده لأن يفارق ما ألفه. وقد يملك المرء كتاباً وعلماً وذاكرةً دينية، ثم تحجبه المصلحة والعصبية، كما قد يأتي آخر إلى البيّنة بقلبٍ خاشع فتتحول المعرفة فيه إلى عبادة، والعبادة إلى صلاح، والصلاح إلى رضوان.

ومن هنا كان الإخلاص قلب السورة الخفي؛ إذ لا يصلح الدين إذا صار وسيلةً لتعظيم الذات أو الجماعة، ولا تقيم الصلاة إنساناً يظل ساجداً لمصلحته خارج المحراب، ولا تؤتي الزكاة ثمرتها إن جعل الفقير سلباً إلى السمعة. إن الدين القيم يعيد كل شيء إلى موضعه: الله غايةً، والوحي ميزاناً، والإنسان عبداً مكرماً، والمال أمانةً، والعمل شاهداً على ما استقر في القلب.

كما أعادت السورة تعريف الخيرية؛ فلم تجعل خير البرية أصحاب القوة أو الشهرة، بل الذين آمنوا وعملوا الصالحات. إن العظمة في ميزان السماء قد تسكن عملاً خفياً لا يعرفه التاريخ، وقلباً يقاوم هواه في صمت، وكلمة عدل يدفع صاحبها ثمنها، ويداً تحفظ حق الضعيف حين تستطيع سلبه. هناك تتراجع ألقاب الأرض، ويبقى ما عرفه الله من صدق العبد وخشيته.

ثم تبلغ الرحلة ذروتها في ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؛ فليس أعظم من أن ينتهي قلق الإنسان إلى رضا ربه، وأن تنكشف له حكمة الطريق، ويعلم أن دمة لم تضع، وصبراً لم يُنس، وعملاً خفياً كان محفوظاً عند الله. ذلك هو الوطن الأخير للقلب: ألا يخاف زوال النعمة، ولا انقطاع القرب، ولا عودة الرحيل.

وهكذا تظل سورة البينة نداءً إلى كل قارئ: لا تجعل وضوح الحق حدثاً يمر على عقلك ولا يبلغ حياتك، ولا تجعل الانتساب إلى الوحي بديلاً عن الخضوع له. دع البينة تفكك أوثان الداخل، وتطهر القصد، وتقيم الصلاة في يومك، وتفتح للحق يدك ومالك، حتى يصير القرآن فيك خلقاً وموقفاً وعمراً.

فإذا سألت السورة في أول الطريق: ماذا ستفعل حين تأتيك البينة؟ فإنها تجيب في آخره: اخش ربك، وآمن، واعمل صالحاً؛ فثمة جنات لا يقطعها فناء، ورضوانٌ إذا بلغه العبد لم يبق وراءه مطلب. والحمد لله الذي أرسل البينة رحمةً، وجعل سبيله واضحاً، وفتح لعباده باب الرجوع ما دامت في العمر بقية.